

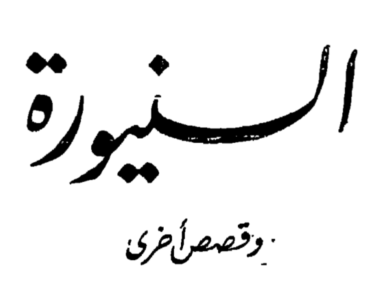
قصص مختارة

السنيورة

وقصص أخرى

خيرى شلبى

قصص مختارة



خيري شلبي

السنيورة

(رواية قصيرة)

اهـــداء

الى ولدى الحبيب « زين العابدين » ..

كان صراخك فى المهد يكاد يمنعنى من اتمام هذه القصـــة .

خـيرى

الفصــل الأول ..

الولد « مختار » يحكى
لرفاقه فى الكتاب ..
عن يوم مرواحه الترحيلة

.. وعاد أبى من الجامع . جلس بجانبنا حول الطبلية وأخذ يحرك شفتيه ويبسبس ويكشر وجهــه لسبب لا ندريه والمســبحة تتدلى من يده ، طويلة تمتد بجانبه وتختفى بين ثيابه . أنا وأخوتى وأمى ننتظره من صفار الشمس لكى نتعشى . فنحن لا نأكل اللحم الا فى هذه الليلة المفترجة .. ليلة الموسم .. طوى المسبحة فجأة وكورها ودسها فى جيبه ، وزغدنى بكوعه لأبتعد قليلا ، وزغد أخى طلبة ليوسع ثم انزاح نحو الطبلية ثم أخذ يبرطم ، وأخذنا ننظر الى بعضنا فى خوف . نظر أخى الصغير الى أبى ويكى ولمـا سأله أبى قال اننى أخـــذت الملعقة الكبيرة فنظر أبى الى بغيظ وهنا صاحت أختى « وسيلة » قائلة ان الملاعق الخشــــب أحسن من هذه الملعقة فبكيت ، وقال أبى انها لا تفهم فهذه الملعقة هى الدليل القاطع على أننا من أسرة طيبة ، حيث أن جدى ورثها عن جده الكبير .. فراح أخوتى يبحلقون فى هذه الملعقة كأنهم يرونها لأول مرة ، ورحت أنا

أنظر الى يدها الكبيرة المزوقة وفتحتها الكبيرة التى تصيب قدرا من المرق ·· أما أبى فقد شوح بيده وقال لأمى :

ـ أنا يا وليه قلت لك ألف مرة شيلى الملعقة فى الصندوق والا ضاعت ·

وقلت لأبى وأنا فرحان أننى جمعت الملاعق من تحت السلم ومن القاعة الجوانية · وقال أخى طلبة « وهو يشوح بملعقته الخشبيه فى وجـــه أبى ·· أنا قمت بتكســـير العيش فى الأنجر » ·· وهنا ضحك أبى · أمى بدأت الغرف · راح جسدها يهتز وهى تغرق العيش بالمرق ، وتضغط عليه بظهر الملعقة · ثم انها قلبت فوقه براما كاملا من الأرز ثم رفعت الحلة بين يديها وأفرغت المرق فى السلطانية · رحت أنا وأخوتى نتابع المرق وهو يسيل ويكشف عن قطع اللحم فى قاع الحلة الكبيرة وقد أخذ الدخان الحلو يتصاعد منها · فجأة أخذ أبى يلم جلبابه ويتبرأ من لمسنا حتى لا نوســـخ الجلباب أو ننجسه · وانزاح اخوتى كلهم ، أما أنا فلم أفعل لأن أبى يفعل ذلك كلما لبس الجلباب نظيفا كما وأنه يجلس الآن فوق خراء البط أو الفراخ · شمر ذراعـه الطويلة وراح يشرب المرق بسرعة · أما نحن فأخذنا نقلب الفته وننفخ فيها لتبرد ـ وبدأت أمى فى تفريق الأنصبة · وقال أبى بصوت عال ان من يأكل ما نابه بسرعة قبل أن ينتهى اخوته فليس له شىء آخر ، ومن يطمع فى نصيب أحد اخوته أو لا يعجبه التفريق أو حتى يلوى بوزه فسيبيت الليلة فى نكد وربما يبيتها خارج الدار لكننا أخذنا نأكل ولا أحد يرفع رأسه · وقالت أمى :

ـ اسمعوا ؟ ··

توقفت الملاعق فى الهواء · جاء صوت الشيخ فرحات الأعمى

ـ المنادى ـ بصوته المشروخ الذى يقول أبى أنه انشرخ من كثرة ما نادى على كل شىء • اقترب صوته :

ـ يا أنفار يا شغيلة •• بشرى لكم فى ذى الليلة المفترجة•• فيه شغل بكرة فى الوسية ـ اليومية ستة ساغ ـ القبض والاتفاق مع المقاول الشيخ على منصور••ياللا يا أنفار شدوا حيلكم واتوكلوا على الواحد الرزاق •

وابتعد صوته واختفى فى الحارة المجاورة • لا أدرى لماذا هدأت سرعة الملاعق • لا أدرى أيضا لماذا بدأ أبى وأمى وأختى وسيلة يظهر عليهم الشبع • وقال أبى :

ـ هيه •• ستة قروش فى اليوم •

وقالت أمى :

ـ يلزمنا خمس كيلات من القمح وثلاث من الذره •

وقال أبى :

ـ أهم حاجة اليوم هى عرق الخشب •

ـ عرق الخشب ؟

هكذا صحنا جميعا •• فقال مشيرا الى السقف :

ـ نصلب عليه سقف القاعة قبل حلول الشتاء •

وردت أمى وهى تمسح شفتيها بكمها وتتراجع بعيـدا عن الطبلية :

ـ متى تذهب الى الحكيم ؟

شوح بذراعه وابتعد عن الطبلية :

ـ لا حكيم ولا زفت

ـ يا راجل •• انك تتبول دما •• وتكح حتى تقطع النفس •

مسح يديه فى حرف الطبلية · وأخرج علبته الصفيح وراح يلف سيجارة · وكان ينظر الى من تحت لتحت نظـرات طويلة حيرتني · وحينما أتوقف عن الأكل ناظرا اليه يحول نظرته الى أختى وسيلة ، والى أمى ، ثم ينفخ الدخان ·

***

طلب أبى عدة الشاى والمنقد ، وأرسل أخى طلبة الى دكان النجار ليشـترى له شايا وسكرا على الحسـاب ، بقرش تعريفة ، ونصف ربع أوقية دخان ·· وقال : سوف يعطيك فلابد أنه سمع الشـيخ فرحات ينـادى على الشغل فى الوسيـه · وذهبت أختى وسيلة الى محمـد بتـاع الغوايش تنتقى لها منـديلا من الحبر ـ وغمزتنى أمى ببيضة أشترى بها حلاوة طحينية ـ وعنـد باب الحارة وجدت عمى « درويش » فعرفت أنه فى هذه الليلة سيتركنا نلعب الكرة المضرب تحت شباك المندرة ·

مثل ليلة العيد ، وليالى رمضان ، والليالى التى يختنق فيها القمر ، امتلأت الحوارى والأجران بالناس · وازدحم دكان النجار ·· وكان الرجال يلتمون حول أنفسهم ويتحدثون بصوت عـال ويضحكون ورجل يشتم آخر ويهدده بضرب الفأس فيقول له : « الله يسامحك » ويمشى بجواره · وامرأة تخبط على باب وتسأل عن قطعة خميرة كنت أسير بجانب أبى ممسكا بذيل جلبابه ·· دخلنا حارة العصاروة ومررنا بالزاوية وصلى أبى صلاة العشاء ·· وحين خرجنا وبدأنا نسير فى حارة الجرانه انضم الينا رجال كثيرون، وراح أبى يلت ويعجن بكلام فارغ لا أفهمه ·

***

انهالت عصا الخفراء فوقنا ، ولم تكف عن ضربنا حتى فعلنا ما يأمروننا به وجلسنا متقرفصين · وجاء « متولى العبد » ـ وهو

من صبيان الشيخ على ـ ممسكا بالدفتر والقلم الكوبيا نهض أبى واقفـا :

ـ كام يوم يا أبو خليفة ؟

ـ الموسم كله يا متولى أفندى ٠

ـ وحـــدك ؟

ـ أربع أنفار ٠

تراقص القلم الكوبيا فوق الدفتر ٠٠

ـ خمسين صاغ تحت الحساب ٠

كانت ورقة جديدة لها خرخشة مفرحة ٠ أخذها أبى ولفها فى منديله المحلاوى وراح يعقد المنديل عقدة فوق عقدة ثم دسها فى جيب الصديرى ، وقال : « ياللا بينا يا ولد » فتعلقت بذيل جلبابه ومشينا ٠ وسألته :

ـ أبى ٠٠ من الذى سيروح معك الترحيلة ؟

ـ أنا ٠ وأختك وسيله ٠ وأنت ٠ وأخيك طلبه ٠

ـ أنا ؟

ـ ايه ٠٠ ألست رجلا ؟

ـ لكننى أروح الكتاب ٠٠ وأحفظ القرآن ٠٠ وأتعلم فك الخط ٠

ـ لابد أن تتعلم فك الفلوس ، وحفظها أيضا ٠

فلم أجد كلاما أقوله ٠

وضع يده على كتفى فى حنان كبير وهو يدفعنى لندخل حارتنا ٠٠ وعند هبوطنا عتبة الدار شدد قبضته على يدى بخوف ٠ وحينما صرنا فى الدهليز صاح « يابت » خرجت أمى من القاعة تحمل اللمبة الفتيل ٠ وصاح أبى وهو يدخل القاعة :

ـ الخبيز بكرة ·· والسفر بعده ·

على وجه أمي فرحة · ولكنها حين جلست معنا صارت حزينة ووجهها متغير · قلت لنفسي : لابد أنها حزينة من أجل أن أبى سيغيب فى الترحيلة ، انها دائما تحزن هكذا فى كل مرة يرحل فيها · كثيرا ما سألتها عنــه وهو غائب ، لكنها كانت تظل طول الليل تسليئا بالغناء مع أن غناءها كان يجعلنى أبكى ، وحينئذ كانت تضمنى الى صدرها وتظل تضحك وتنظر فى عينى حتى أسلم أمرى لله واضحك ، وأحسست أننى فرحان بالترحيلة وقلت لأبى :

ـ هل سنرى بلادا كثيرة يا أبى !

فصب الشاى فى الكوب الصاج ثم أعاده الى البراض ، ثم رفع البراض مرة أخرى وصب الشاى وكان صوت انصبابه فى الكوب أحلى صوت · شفط أبى فارتفعت جبهته كلها ثم هبطت بينما يقول « ·· ح ·· ح » ، ولم يقل لى هل سترى بلادا كثيرة أم لا · فزحفت حتى التصقت بأمى وقلت لها أننى سأروح الترحيلة وساشترى لنفسى حذاء وشرابا · قال أبى وهو يبتسم ويدلق بقايا الشاى فى المنقد :

ـ نفرح كأنك ذاهب تعمل سائسا لبغلة التفتيش :

انتفضت أمى وضربت صدرها وشهقت :

ـ الشر بره وبعيد··الشر بره وبعيد··ياشيخ حرام عليك·

ثم خبأتنى فى صدرها · النمــل الذى فى الدنيــا كلها يزحف تحت ملابسى · رفعت رأسى وقلت لأمى ·

ـ أمى ·· هل ·· هل بغلة التفتيش هذه مثل كل البغال ؟

قهقه أبى وقال :

ـ لا ·· هى بغلة مثل كل الناس فى بلدنا ·

ثم ضحك ثانية . وظل يضحك حتى صارت جبهته مثل حزمة من السحالى . وتضايقت امى وطلبت أن نفض هذه السيرة .. ومدد أبى ركبتيه وطرقعهما وقال :

ـ ياه .. حوشى حوشى .. أحسن خلاص حياخدوه .. قال بخت .

ثم وضع احدى الركبتين فى حجرها والأخرى فى حجرى ، فعرفت أننـــا يجب أن ندعك رجليه نضغط فى الدعك عند خنقه القدم . قرصته أمى فى قدمه وقالت :

ـ أليس حراما ؟ تريد أن يؤخذ الولد غدرا ؟

قال مثلما يصلى :

ـ هل سأعيش وأراه فى هذه الأمله ؟ .. يوم المنى عندى يوم أراهم ينتقونه من وسط البلد كلها .. ويأخذوه فى زفه .

ـ يأخذونه ليتزوج ؟

ـ فعلا يا بنى .. هو بالحق يتزوج .. يتزوج البغله .

ـ والبغله هل تتزوج ؟

ـ قل له يا ولدى .. قل له .

هكذا قالت أمى . وقال أبى :

ـ من يطلع من البلد ينفتح له باب السعد .. ياسلام .. انظرى الى هذا الاسم .. سايس .. لبغلة . التفتيش . سبحان العاطى

انبسط وجه أمى وظهرت عليه الفرحة .. غـير أنها تنهـدت بحرقة ، واحتضنتنى . قلت :

ـ أمي ·· أحب أن أكون سائسا لبغلة التفتيش ·

شهقت أمي وقرصتني في خدى وقالت : «الحق مش عليك» آلمتني القرصة فبكيت فربتت على ظهرى لتسكتني ، وأحسست لحظتها أنني يجب أن افعل اشياء كثيرة ، أن يطلع الصباح فلا يجدونني ، أرحل وحدى ، أظل أمشي وأمشي حتى أصل الى الحظيرة التي تنام فيها بغلة التفتيش هذه وأرى شكلها فقط ، وأعرف : لماذا يفرح ـ الرجال بالقدوم اليها ، وتحزن النساء ؟ ·· قال أبى :

لماذا تضربينه يا امرأة ؟ ·· ذراعك متبرىء منك ؟

فبكيت بصوت عال · وقالت أمي :

ـ ان شاء الله يخيب أمله ·· بشرت عليه بالبغلة ؟·· ان شاء الله سيطير من يدينا ·· سنفقده كما فقدت البلد كل الذين أخذوهم لهذه الملعونة ··

ـ أنت عدوك أهبل ؟ ·· طب ·· قولى ياليت ·· يكفى أن نسمع به وبحسه في البلاد ··

ـ وان جاءك زكيبة عائمة في المصرف كما يعودون ·· تنفعنا بسلامتك ؟ على أن أبى تثاءب ، وتمدد فوق الحصيرة ، وسحب المخدة تحت رأسه ·· ونهضت أمي فأمسكت اللمبه وأغمضت عين الضوء وقالت :

ـ قم يامختار لتتعشى ·

وأحسست كأنني أريد أن أطير في الهواء ··

***

قالت أختى « وسيلة » بغيظ « نم يا اخى » وجذبتني اليها ثم قالت بعد برهه :

ـ أنت ياولد٠٠ ألا تأكل ؟٠٠ انك جلد على عظم ٠٠ بالله كيف تذهب الى الترحيله ؟

قلت لها انني أستطيع أن أشتغل مثلهم ، أعرف نقاوة اللطع من شجرات القطن الخضراء : أقلب الشجرة ذات اليمين مرة ، وذات الشمال اخرى ، فان لمحت اللطعة قطفتها بورقتها ووضعتها فى الكيس المعلق في رقبتي ٠٠ فصاحت أختي في خوف وهي تشهق لا ياعبيط ٠٠ احذر أن تقطع الورقة كلها والا قطع الخولي رقبتك اقطع على قد اللطعة فقط ثم قالت بعد برهة وماذا تعرف غير نقاوة اللطع ؟ « قلت أعرف جمع القطن أيضا ٠٠ أمد يدى وأقطف اللوزة المتفتحة ثم أضعها فى عبى هنا ضحكت «وسيلة» ولا أعرف كيف نامت فى الحال، وكنت أريد أن أتكلم وأتكلم حتى يطلع الصباح ولكن «وسيلة» غطت وجهها بيديها وصمتت ، فخيل الى أن الدنيا كلها ماتت٠٠وكان نور اللمبة نمرة خمسة يتشعلق على الجدران السوداء فخفت وجلست ، جدتي ـ أم أبى ـ تنام فوق قبة الفرن٠٠والفرن فى نهاية المصطبة والمصطبة كبيرة وتشغل القاعة كلها ، بينها وبين الباب ، وأمام الفرن ، برحاية واسعة تجلس فيها النسوة أمام مرصات العجين يبططن العيش على المطارح ويملأن الدار باللت والعجن كما تقول جدتى ٠ هى لا تحبهم ولا تحب اليوم الذى ندير فيه الفرن من أجل خاطرهن ٠٠ أما أنا فأحبهن ٠٠ ما أحلاهن وهن يأخذننى فى أحضانهن ما أحلا صدورهن العريضة الملآنة وأنا أدفن رأسى فيها ٠

تقلبت « وسيلة » وانطرحت على ظهرها كالبهيمة الفطيس٠٠ وتناءبت ونفخت وخيل الى انها تنفخ من بطنها كثيرا من الحسرات التى تقول أمى دائما أن المسكينة تشربها فى قاع بطنها٠٠جدتى هى الأخرى تقلبت فوق الفرن وقالت :

ـ أما نمت يا حبة عينى ؟

ردت وسيلة « أبدا ياجدة » قالت جدتي « الهى ينشك في دراعه » قلت وأنا انتفض « من يا جدة ؟ » قالت « ابن ظريفة بائعة الطماطم ٠٠ هو خولى في الوسية ويضرب أختك » ٠ شعر رأسي يقف كالشوك ٠٠ جدتى تقول « ماذا يريدها أن تفعل له ؟ هل نسى أن جدها كان يحمل القرآن على صدره ؟ ابن الزانية يتصور ان بنات الناس كلهن مثل أمه وتقلبت وسيلة وقالت :

ـيتصور أننى منهن ٠٠ يريدنى أفعل له مثلما يفعلن ٠٠ لكن فشر ٠٠ اننى لا أعرف مضغ اللبان ٠٠ ولا وضع مقصوص الشعر على الحاجب٠٠ولا زحلقة المنديل٠٠لا أعرف الكلام بالعين والحاجب ولا النظرة الساهية ٠٠ ولا أدعك كعوب رجلى بطوبة حمراء ٠٠

فقالت جدتى :

ـ لأنهما حمراوان لوحدهما ٠
ـ النبى أشرف خليقة الله لا أغسل وجهى أبدا
ـ لكنه يتورد ياابنتى رغم ذلك ٠٠
ـ لا أقصد حين أمشى أن أهز صدرى
ـ ليس ذنبك
ـ لا أقصد والله العظيم ان اكون جميلة
ـ دعك من هذه الأفكار ياابنتي ونامى ٠

وتنهدت وقالت بعد برهة :

ـ لعنة الله على « الغرابوه » ٠٠ البنات الغرابوه » هن السبب في هذا ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الغربة هى أصل السبب ٠

انتقلت الى جوارها ٠ سألتها عن هذه الغربة ، وعن السبب في أنها تلعنها دائما فقالت :

ـ ربنا لا يكتبها عليك يا ولدى ٠٠ انها تجعل الناس يقولون : البلد التى لا احد يعرفك فيها ٠٠ امشى عاريا فيها ٠٠

بلعت ريقى ٠ قلت لها :

ـ من هم الذين تسمونهم بالغرابوه ؟

قالت وهى تتحسس رقبتى وتتثاءب :

ـ مقاصيف الرقبة ، الذين تراهم هنا فى بعض الايام يردمون البرك ٠ انهم والعياذ بالله كالبلاء ٠

ـ انما ٠٠ انما يا جدتى ٠٠ من غد سنذهب انا وأبى الى الترحيلة ٠٠ فهل سنصير نحن الاخرين غرابوه ؟

شهقت جدتى :

ـ لا ٠٠ يا ولدى ٠٠ ان طبعنا يختلف عن طبعهم ٠٠ فنحن نعرف آباءنا وأجدادنا ، وعائلاتنا ٠٠ الأب يحكم الابن حتى فى غيبته ٠٠ الواحد منا لا يأتى الفاحشة لأن أباه النائم فى القبر ـ يمنعه ٠ ٠و ٠٠ اننا لا يجوز أن نصير « غرابوه » مهما ابتعدنا عن هذه الديار ٠٠ فالأب لا يبارح دماغ الواحد منا أينما ذهب ٠٠ الواحد منا يا ولدى حين يجىء مرة لارتكاب الفاحشة يتذكر أن الألسن ستلعن أباه فلا يرتكبها ٠٠ الأصل يغلب فينا دائما ، حينما تقع فى لحظة ينعدم فيها الأصل ٠٠ والغرابوة أليس لهم أصل مثلنا ؟ ٠٠ مساكين يا ولدى ٠٠ كلهم ولدوا فى بلاد الغربة ٠٠ الغربة حرمتهم من كل شىء ٠٠ فهم فى الغربة ناس ٠٠ ناس فحسب ٠٠ لا يقيمون حسابا لشىء سوى عصا الخولى ٠٠ مصيبة هذه العصا يا ولدى انها تعلمك كيف تقول الآه وحدك ٠٠٠ ان طول الغربة يقتل فى الناس أصلهم وهذا أسوأ شىء ٠٠٠

وكنت أريد أن أقول كلاما كثيرا ، ولكنني لم أجد ولا كلمة ، كما وأني أريد أن أسمع وأسمع وأسمع ٠٠ ولكن جدتي تتثاءب ، وميلت رأسي على وركها ، أخذت ترقبني فرحت في النوم كعادتي كلما فعلت بي هذا ٠٠

***

لم تكن الشمس قد طلعت بعد ٠ كل ما هنالك ان الفجر « بربش » بعينيه فامتلأت شوارع البلد كلها بخلق الله من كل لون رجال ونساء وصبيان وبنات وعجائز كلنا ذاهبون الى « ملم الأنفار » الذى حدده المنادى عند نخل كحكاية ٠٠ النخيل يقع فى المدخل الشرقى للبلد وحينما وصلنا اليه أحسست بالفرح ٠ فقد كنت أفرح كلما وجدت نفسى بجانب النخيل حتى فى الأيام التى لا يكون فيها بلح ٠ على أن صوت « كحكاية » حارسة النخيل كان يجعجع كالعادة ولكن ماذا يفعل صوتها فى بلد بحالها قيل لها « هنا مكان الانتظار ؟ ٠٠ » ٠

وبدأ الناس يصرخون ٠٠ كان الباشخولى « سيد قاقا » الذى نراه فى بلدنا كثيرا يضرب الناس بعصاه العوجاية لأنهم صنف واطى وأولاد كلب لم يقفوا صفا لوحدهم صرنا نتخبط فى بعضنا ولم نعرف كيف نقف صفا واحدا ٠٠ وجاء صوت الكارثة ثم ظهرت الكارثة نفسها ثم توقفت خيولها نزل منها رجل طويل يرتدى طربوشا وجلبابا من الكشمير وشمسية٠ترك الكارثة واقترب منا٠عرفته٠انه « مصطفى شكرى » كاتب الأنفار أشقر الوجه أحمر الخدود والشارب ٠٠ أهل البلد يعرفونه ولهم فيه العشم ، فهو ليس مثل الكتاب ٠ كتاب الأنفار يجيئون من مكان بعيد ولا تعرف كيف تكلمهم ، انما هو ابن « شكرى أفندى » الرجل السكرة الذى يسكن سراية فى البر الشرقى عند ترعة خلاف ولا تمنعه قبعته أو بدلته أو عصاه الأبنوس من القاء السلام على الناس والرد على سلامهم بقوله : اتفضل ٠٠ اتفضل والله » وكل الناس تحبه ولا تؤخر له طلبا ،

وأنا أيضا أحبه لأنه لا يشخط فينا حين نتجمع حوله لنتفرج على ذلك الذى يغرزه فى جنب دمه ويصير لا شغله له ولا مشغلة سوى اشعاله. وقد سألت أبى ذات يوم ان كان العمدة قد حكم على « شكرى أفندى » بأن يفعل هذا طول النهار والليل فضحك وقال انه هو الذى حكم على نفسه بذلك . ابنه مصطفى هو الوحيد من لابسى الطرابيش والأحذية الذى لم نناده بالأفندى ، بل ننطق اسمه هكذا كأنه واحد منا .. مصطفى ..

كنت أحس بالفرح يتنقل من واحد الى واحد من أول ما رأينا مصطفى .. ثم اننى سمعت ناسا يشـــــهقون فنظرت ، فاذا برجل يهبط من الكارتة ، افندى هو مثل الفلق وفى عرض باب الزريبة يلبس قبعة ويمسك بيده اليمنى كرباجا وباليسرى منشة ذات يد تبرق مثل الذهب وقالوا فى همس خائف « الناظر خفاجة .. الناظر خفاجة » ووقع قلبى فى القناة .. كانت أختى وسيلة تتحدث فى عز النوم وتصرخ قائلة : « خفاجة .. خفاجة » فتنهض جدتى جالسة وتقول « منه لله .. ينشك فى دراعه » ثم تردد بعد برهة « يا ترى عامل فيك ايه يا قلب أمك » . مصطفى شكرى يمشى .. الخولة والباشخولة يجرون اليه يعقد حاجبيه ويكشر ويشير اليهم بالقلم ليقفوا صفا بحذاء النخيل ، جاء السيد قاقا يجرى هو الآخر رافعا ذيل جلبابه ووقف أمام خفاجة محنيا مثل كلب البكاروة حين يكف عن الهوهوة ويهز ذيله أمام أصغر طفل فى البكاروة . وظهر المقاول « على منصور » بكرشه الكبير وخدوده الحمراء وطربوشه وشمسيته . راح يمشى على مهل كالمحمل : نعم ياعم .. هو ليس كالأنفار يجرى من الفزع وليس كالباشخولى يطوح ذيله ، كما وأنه هو الآخر يسير خلفه حفنة من الرجال يسمونهم بالسواقين صنعتهم اللف على دور الأنفار والتبييت عليهم واعطائهم العربون . «على منصور» يسلم على الكاتب ويقف بجواره ..

وأخرج مصطفى دفتره وقد، الكوبيا في الحال استدار السواقون وغادروا المقاول ، ثم أخذ كل منهم ينادى على الأنفار الذين اتفق معهم وقبضوا منه العربون ٠٠ تمايل الصف الطويل وراح يتساقط وراح كل سواق يحوط على حفنة من الأنفار ٠٠ تقدمت الحفنة التى أنا فيها مع أبى واخوتى خلف « متولى العبد » ووقفنا حينما وقف ثم تراجعنا عنه قليلا ٠٠ وأخذ السواقون يدفعوننا بأذرعهم ويوقفوننا فى الصف من جديد ولكن على مزاجهم هذه المرة٠ بعدها ظللنا واقفين لا نفعل شيئا لا أحد يريد أن ينظر الى جاره فظننت أنهم جميعا يؤدون الصلاة وبعد برهة سيركعون ، وتمنيت أن يعجلوا بالركوع حتى أسند رأسى قليلا على الأرض وأثنى قدمى ٠٠ لكن الصبح لم يعد حنونا كما كان عندما خرجنا من الدار حاملين قفة الزوادة وصرة بها هدومنا وبطانية وجوالين ثم ان الظهيرة جاءت ولم نركع بعد ٠٠ ونشف ريقى ٠٠ وقال أبى دون ان ينظر الى « مالك ياولد ٠٠ بتكح كده ليه » واذا بى أبكى فبقرصنى لأسكت ٠٠ أنا أيضـــا أردت أن أسكت وما استطعت ٠ فضغط أبى على أنيابه وقال بغيظ « بتبكى ليه ياابن ديك الكلب » خرج صوتى غصب عنى « رجلى وجعتنى ٠٠ أهىء ٠ ره ٠ رجـ ٠ لى ٠ و ٠٠ » .

ـ أسكت ياابن الكلب ٠٠ نهارك أسود ٠٠

وزغدنى بقسوة ، وأخذ يقول فى خوف :

ـ ستفضحنا ٠٠ الناظر سيراك ٠٠ سيطوقنا بالكرباج ٠٠

مالت أختى « وسيلة » على أذنى وهمست :

خفاجة موته وسمه من يتحدث مع الآخر ساعة فرز الأنفار ٠٠ لو شافك سيعدمك العافية ٠٠ هس ٠

واعتدلت فى فزع ووقفت مثل عود القصب أما أنا فحركت قدمى الى الوراء فلم أجد أرضا تحتها ٠٠ خفت الوقوع واستندت على كتف أختى ٠ قال أبى يهددنى « قف معدولا يا مائع » ٠

البكاء يغلبني : « أنا دخت يا أبي سأقع » أمسكني من يدي وظل يضغط عليها وكذلك فعلت اختي وسيلة وقالت في اذني : « أوقفناك على قالب من الطوب » صحت « سيوقعني .. سأدفعه » صاحت بخوف « لا .. خفاجة سيرجعك .. سيلاقيك صغيرا وسيرجعك .. قف كما أنت فوق القالب لتبقى طويلا و .. » ولم أجدها بجانبي لابد أنكم تعرفون « النجمة أم ديل » تلك النجمة التي ينقطع خيطها من السماء فجأة فتهوى على كتف الارض البعيدة كشرارة النار .. هكذا رأيت أختي وسيلة طارت في الهواء صارخة واندلقت على الارض تعوى مثل الكلب .. و .. اختفت الدنيا من وجهي اندب عامود من الحديد الملتهب في عيني وأخذت أدبدب فوق الارض وأدور بعد أن ضاع قالب الطوب من تحتي كنت أصرخ ، وكانت عيني تتقلب تحت كفي وتصير مثل كتكوت ينقر بمنقاره في دماغي . صاح أبي وهو يشهق باكيا « يا حبيبي يابني .. طرف الكرباج طير عينيك » هنا كفت وسيلة عن الصراخ ، وراحت تزحف على الأرض وتقول آه .. ثم وقفت بجانبي تتساقط الآهات من فمهـــا ، وتتحسس عيني بيدها ، وتحسس جنبها بالأخرى . قفز الباشخولى أمامنا وجعر : « بس » فوقفت الآهة في حلقينا وكنت أرتعش .. جعر الباشخولى « اقف عدل » فانسلتت يدي من يد أختي ورفعت وجهي عن الأرض لكن جانبا كبيرا من النور اسود في عيني .. وضعت يدي على عيني أريد أن أسكت الألم ثم ان ظلاما أخذ يقترب ويحيط بنا عرفت فيه الناظر والكاتب والباشخولى ومتولى العبد وكثير ممن لم أعرفهم .. راح الناظر خفاجة يقف أمام كل واحد ، ويلف حوله وينظر فيه ، ثم أنه أشار الى صبي نحيف وصرخ فيه : « اطلع بره » فمد الولد رجله ، وارتفع الكرباج وشرخ الهواء ، مثل غبيط السباخ وقع الولد وانفرش وبعثر الصراخ كالتراب وتكوم حول نفسه ليقف ثانية ، على أن خفاجة قذفه بالشلوت صائحا : « على أمك يابن الزانية » واندفعت أيد وأخذت تجر الغبيط على الأرض حتى ألقت به بعيدا .

ثم ان خفاجة مسح جبينه بالمنديل وراح ينظر فى وجه أبى ويلوى شفتيه ويبرطم قائلا : « جايبينكم منين ·· من القرافة » ثم صاروا أمامى كلهم فكأننى وقعت فى بئر وغطتنى المياه ·· وضحك خفاجة وشخر ورفعت وجهى رأيتهم جميعا يرتعسون ارتعشت أنا الآخر وراح البكاء يهزنى يريد أن يخرج وأنا أسد فمى بيد وأضع الثانية على عينى ·· أما الناظر خفاجه فانه زغد الباشخولى وأشار لى بيد المنشة وقال « أمال ايه ده » · قال الباشخولى بخوف « ما ·· ماذا ؟ » صار خفاجة ينقر بيد المنشة فوق دماغى بقسوة « هذا ·· هذا ·· هذا » لوى الباشخولى رقبته فزحف المقاول ووقف أمامنا يبتسم وهز رأسه للناظر مرة وللباشخولى مرة وبعصاه أشار الباشخولى نحوى « أمال ايه ده ياشيخ على » فاقترب المقاول منى كأنه يدوس فوق صدرى وصار يفحصنى ويلوى شفتيه ، ثم رجع برأسه وصرخ : من الذى دسك هنـــا يا ولد ·· اطلع بره » صارت الأرض تنقلب يمينا ، وتنقلب شمالا وصرت لا أعرف كيف أصد نفسى عن الصياح والبكاء وعوجت رأسى لأنظر الى أبى فوجدته لا يريد النظر الى ، ومددت يدى لأمسك يد أختى فوجدتها تنزاح عنى ، فاندفعت أبكى وأقول « تعاليلى يامه » وصرخ المقاول : « من الذى دسك هنا » ورفع يده ليضربنى ··· هويت الى الارض صارخا « فى عرضــــك أنا جئت لأشتغل ·· وهذا الرجل هو أبى ·· هو الذى قبض لى ·· مالى أنا هو الذى قال لى تعالى » ورأيت رقبة أبى تقصر وتغوص فى كتفيه ثم ان المقاول « على منصور » طبق فى خناق « متولى العبد » وهــزه وصاح « كيف تتقاول مع هذا » وكان خفـــاجة لا يزال يضحك ويشخر ·· أما الباشخولى فدفع أخى طلبه بعصاه فى مؤخرته فانطلق يجرى نحو البلد أما أنا فكنت ممدودا على الأرض محوطا بدائرة من الناس ·· زغدنى خفاجة ببوز حذائه وصاح : « ياللا ياولد قم » ·· فقمت واذا بالقلم يلهف صدغى ، فدرت مثل الفأر فى المصيدة وطرف الكرباج يلاحقنى ، وما أن وجدت طريقا بين الواقفين حتى انسللت

مرتعدا وأخذت أجرى فى الحقول مثل كلب هارب من السماوى ٠٠

عند بحر السبيل توقفت ٠٠ وجدتنى أرتمى فوق كومة من الردم ، النفس يخرج من بطنى أحسست بشىء يسيل على فخذى٠ عرفت آننى قد « فعلتها » على نفسى دون آن أدرى و ٠٠ حزنت حزنا شديدا ٠٠ حين تأكدت أن خفاجة ليس يجرى ورائى بالكرباج تمطرقت على ظهرى وأخذ الكتكوت الذى فى عينى يتقلب وينفر فى قلب دماغى ، ورأيتنى أتوكأ على عصا مثـــل الشيخ فرحات والشيخ الكردى وأقرأ القرآن رواتب وحول المقابر وهنا اشتعلت النار فى عينى ، وتهيأ لى أننى سأستريح من الألم اذا نفضت رأسى فى الارض حتى تتكسر وتصير مثل الروم ٠ على أننى أمسكتها بيدى ورحت أصرخ وأرفس الارض وأتمرغ ثم أننى أحسست بدماغى ينفلق وتتدافع فيه الرياح ٠٠ وتاه من كل شىء ٠٠

***

٠٠ أنفاسى ساخنة وكريهة ٠ على وجهى حـذاء يضغط على صدرى ٠٠ أحاول الصياح ولا أستطيع رفع صوتى أو تحريك أى شىء فى جثتى ٠ الناظر خفاجة يمسح نعل حذائه فى صدغى ٠ الخفراء يمسكون أبى ويقيدون أختى ويمنعونها من المجىء الى ٠ فى نعل الحذاء مسمار يريد أن ينغرز فى صدغى ٠ و ٠٠ وجدت صوتى ٠٠ اذا بى أسمع نفسى اذا بى أصرخ واضعا يدى على عينى ، اذا كلب كان يلحس فيها وأنا نائم ٠ إنتفضت جالســـا وقذفت الكلب بطوبة فى أذنه واستغربت أن تنغلق لى عين فأرى بعين واحدة كل شىء ، كل ماهنالك أننى لابد وأن أعوج رأسى الى اليمين كلما أردت النظر ٠٠ نحو بحر السبيل زحفت حتى صرت مختفيا فى البوص المزروع على الشاطىء وفرحت بذلك ٠ فخلعت جلبابى وسروالى وغسلتهما فى بحر السبيل ، وأيضا قلدت أمى وتركت الثوب بين راحتى بشدة ، وعصرتهما ، ونشرتهما فوق أعواد البوص

كما وأنني وضعت قدمي فى الماء ورأسي بين أعواد البوص ولكن الشمس لم ترحمني ، لا الماء يجود ببرودة ولا البوص يترك ظلا . وقلت لنفسي : كان الله في عون الأنفار . هل كان أخي طلبه سيتحمل هذه النار طول النهار في الترحيلة ؟ والله ماظني . الحمد لله ان خفاجة طرده ، زمانه الآن في الدار يبكي ، وزمانه قال لأمي عما حدث لي . ثم تذكرت الأنفـــار والملم فوقفت على كومة الردم وعوجت رأسي وبربشت في الشمس .. كان الأنفار مازالوا واقفين في عز اللهب. تذكرت جدتي .. كانت دائما تتحدث عن يوم اسمه يوم المشهد العظيم ، أظنه يحدث يوم تقوم القيامة ، وفيه يخرج النـــاس من قبورهم ويقفون تحت عين الشمس الحارقة في انتظار الشفاعة المحمدية اذ يجيء سيدنا محمد ويقول لربنا « عشان خاطري يارب .. دعهم يعودوا الى القبور » وبعدها يمشي الناس فوق حد سيف لا بداية له ولا نهاية فمن كان صالحا مشى في أمان ومن كان فاســقا وقع فابتلعته جهنم الحمراء . .

حوافر تدق الأرض من خلفي .. هبطت بسرعة وداريت نفسي في البوص وأخذت أنظر ياله من منظر . أحصنه تسير على الطريق الزراعي وفوقها رجال شداد يتقمطون بملابس صفراء سراويلهم تلتصق بأرجلهم ولا أعرف كيف لبسوها خصوصا وأنها ملتصقة بالأحذية الكبيرة في أقدامهم . هذا واحـــد يتميز عنهم بشارات حمراء وخضراء ويبدو أنظف منهم ويبدو أيضا أنه ثقيل الدم منظره مخيف فلابد أنه الملك فؤاد الأول تحيا مصر ، وربما يكون صاحب الوسية ان جدتي تقول ان صاحب الوسية محمد علي باشا فهل يكون هو ؟ انه يمشي وهم يمشون خلفه يحرسونه بالغدارات . صار وقع الحوافر يقترب وصار مثل الطبل في أذني وصار يبتعد من جديد نحو البلد . وقلت ان الأحصنة بمن عليها تقصد الأنفار ولكنها تركتهم ودخلت البلد ثم أنني سمعت طبـــلا حقيقيا .. وها هو ذا الريس « حيطاوي » الطبال يقترب بفرفته النافخة في

المزامير البوص قادمين من هناك من أول ترعة المشروع . الأنغام حلوه ولكن لا أعرف لماذا هي تقطع القلب وتجعلني أهم بالبكاء . صارت فرقة الطبل تزحف الى أن حاذت الأنفار واختلطت بهم وكفت عن الطبل .. ورأيت الجميع مثل جبل من الدود الكبير يركب فوق بعضه ويزحف خارجا من تحت بعضه .. ثم .. صياح وزعيق وصفير .. ثم اذا بالطبل والزمر يرتفع من جديد . وأخذ جبل الدود يهتز ويهتز وصوت الطبل يشيله ويحطه الى أن تفتت وتناثرت منه قطع كبيرة صارت تنفلق وتتحول الى رجال . على أن الجبل كان قد صار الى نصفين ، نصف ينحدر عائدا الى البلد والآخر يزحف نحو عربة الكردى .. والدنيا تسبح في الغبار ..

***

عزبة الكردى أو سراية الكردى لا يهم فأنتم تعرفون أن سراية الكردى هي عزبة الكردى وعزبة الكردى هي سراية الكردى . فيها يسكن الخولى والباشخولى . يقيم الكاتب . ثم أن السراية لا تفتح أبدا الا اذا جاء الناظر خفاجة ليستريح فيها ويمكث فى الناحية أياما .. ذلك فى الأيام التى تخلو فيها الوسية من الشغل ، أما فى أيام الشغل فهو يجيء بالكارتة صباحا ويرجع الى كفر الشيخ عند المساء . هذا ما يقوله أبى دائما . والله لقد ازدادت حيرتى .. لماذا تذهب فرقة الريس « حيطاوى » الى الكردى ؟ ويتجــه الرجال المقمطون الى البلد ؟ ما الذى حدث فى الكردى وما الذى حدث فى البلد ؟ وما الذى بعثر الأنفار فذهب فريق منهم وراء الطبل وفريق وراء الرجال المقمطين ؟ .. أنا شخصيا لم أعرف السر ولكننى أحببت الذهاب الى الكردى . وكان فى نفسى شيء يقول لى : ياولد اذهب خلف الرجال المقمطين فلابد أن هناك ما يستحق الفرجة . وكانت السراية التى يقولون أن الملك يجيء - ليستريح فيها - لا تبارح دماغى .. وكنت أسأل أبى عما يحدث خلف شبابيكها الخضراء والحمراء والزرقاء وعما يفعله الملك مع بنات الحور فكان

ينفجر ضاحكا ثم يدارى حنكه بكمه وينظر حواليه فى خــوف لا أعرف له سببا اخذت أجرى وأقفز فوق القنــوات وشجيرات القطن ، والشمس تلسعنى فى ظهرى ورأيت ظلى هو الآخر يجرى بجــانبى وكان عاريا ، فتذكرت جلبــابى وسروالى • ووقفت وارتديتهما وأخذت أجرى خلف الطبل •

***

سراية الكردى مثل العروسة زينوها بسعف النخيل والمناديل الحريرية •• بين السراية والبيوت الطين جرن كبير امتلأ بالرجــال أغلبهم فى عمر خالى معاطى ـ لابد أن ابن الملك سيتزوج الليلة قلت هذا فضحك الذين حولى • ثم ان الطبل بدأ يرتفع ويرتفع والمزامير تدخــل فى أجساد الرجال • وتسـحبهم الى الدائرة ، يروحون ويجيئون فى الدائرة ويرتفعون فى الهــواء ويهبطون ويرقصون بالنبابيت ، ثم يهجم أحدهم فجأة بنبوته على أحــدهم وأتأكد أنه سيقسم وسطه لا محالة ، ولكن الآخر يطير فى الهــواء فتطير الضربة •• كدت أصرخ من الفرح ، فقد رأيت خالى معاطى يلعب معهم بالنبوت ، ورأيت الجميع يلتفون حوله وينهالون عليه ضربا ولكن ضربة واحدة لم تصب جسده•وفى الآخر رفعوا النبابيت صائحين ثم انسحبوا من الدائرة يمسحون عرقهم فى أكمامهم وديول جلابيبهم ولم يبق فى الدائرة سوى خالى معاطى الذى وقف برهة كأنه يقول : « الرجل فيكم يطلع لى » ثم انسحب وعاد الى الواقفين فجريت نحوه أكاد أطير من الفرح •

ثم ان المزامير هدأت برهة ثم تسللت وارتفعت مع الطبل على واحدة ونص • وغمزنى خالى وقال : « شايف أبوك ياولد ، واذا بى أراه •• أبى يتحزم بلاسة حريرية ذات شراشيب رفيعة تروح وتجىء مع هزة وسطه •• وسألت نفسى : هل هذا هو أبى حقا ؟ الذى كان فى الصباح مثل الكتكوت الكمشان ينذر بقرب موته ؟ شىء واحد

لولا حدونه لما صدقت أنه أبى ، تلك نظرته نعم فقد كان يرقص رقصة الخيل ، ويقترب منا وفى عينه نظرة هى بعينها النظرة التى ينظرها أحيانا الى أمى فتخفض وجهها وتطلب منا أن نقوم ننام ·· قال خالى :

ـ أيعجبك أبوك ياولد ؟ ·· بهلوان ·· آه لو علمت أمك ·

ـ هو ايه اللى حصل والنبى يا خالى ؟

ـ اتفرج ولا تسأل ·

ثم اندفع فجأة وألقى بنفسه فى قلب الدائرة فصاح الذين حوله وصفقوا · وفى لمحة كان قد تحزم هو الآخر بلاسة حريرية ·· واختطف نبوتا وراح يثب ويزأر فتتسع له الدائرة ويرتفع الصياح · ثم وقف دفعة واحدة خابطا الأرض بطرف نبوته بين أقدام فرقة الريس حيطاوى ·· فانخرس المزمار فجأة ·· ثم رفع خالى نبوته بيديه ورفع وركه اليمين فزفر المزمار ودقت الطبلة · ثم هبط بوركه ورفع الأخرى ·· ثم راح يكرر هذا والمزمار يصاحبه ·· ثم أخذت الحمية تدب فى جسده · ثم أخذ الجميع يصفقون له ·· على واحدة ونص ··

***

لم أنتبه الى أن الواقفين كلهم مشغولون بشىء آخر غير الطبل والزمر والرقص · ولم أعرف الا حين صاح واحد بجانبى وكز على أسنانه : «ياولد ·· أموت قتيل والنبى »·· ونظرت اليه فاذا به قد علق بصره بشباك السراية ·· وعوجت رأسى لكى أنظر ·· واذا بى أراها ·· السنيورة ·· كانت واقفة فى شباك السراية تستند بكوعها على حافة الشباك ، والأســاور الذهب تلمع فى يديها ، وصدرها عريض ومنتفخ ، ورقبتهــا طويلة وذقنها مثل

رأس الجوافاية .. الحلوة أما شعرها فينطرح على كتفيها مثل حزم البرسيم .. وأقسمت أنها زوجة الملك .. وأخذت أشب وأشب الى أن تململت السنيورة فى وقفتها ثم إبتسمت ثم اعتدلت وانسحبت وغابت عن عيوننا .. بعدها أطل وجه الناظر خفاجة ،. فسابت ركبى ولم أقدر على الجرى انما داريت نفسى فى الرجال .. قال خفاجة بلسانه المعووج :

– الهانم انبسطت .. وتقول لكم .. خلاص .. عودوا الى بيوتكم ... ثم اختفى فى الحال وهاص الرجال . وامتطيت كتفى خالى معاطى الى البلد .

الفصـل الثانى

الولد « طلبـه » يتـدخل

ويحكى : كيف ماتت «بسيونية»

والله والله أنا عرفت لوحدى ان أخى مختار ذهب الى الكردى مع الطبل والزمر . أما أنا فحين طردونى .. وقفت .. اختبأت فى النخيل خفت على ابى واختى وسيلة واخى مختار .. ولما رايت الرجال المفمطين ، خفت ايضا وقلت : لابد انهم جاءوا يطـردوننا ويضربوننا و .. اختبأت حتى لايرانى أحد .. ولما سمعت الطبل والزمر طلعت أجرى وراءه ورجعت لانى لقيت الطـريق مسـدودا بترعة المشروع والكوبرى مسدودا بالانفار .. ولما ساح الطبل فى الانفار ، رايت الناس يعودون الى البلد ، فعدت معهم وقلت : لابد أن ابى واختى وسيلة واخى مختار قد عادوا ايضا .. وكنت أرى العجب . النساء يخرجن من الدوار وينظـرن الينا ، يمسـحن الدموع ، ويدخلن الدور ويصوتن اما الرجال فيمشـون ولا احـد يكلم أحدا . الدكاكين مغلقة. قلت لابد ان مفتش الصحة أو مفتش التموين أو الموازين موجود فى البلد .

ظللت أمشي مع الناس .. وعنـد بيت العمـدة وقفوا .. ورأيت الرجال المقمطين .. واحد منهم يجلس ويضع رجـلا على رجل ، والآخرون واقفون حوله يمسكون الكرابيج . اما العمـدة فقد وقف هو الآخر ، وكان يعدل طوقه مرة ، ويسوى زر طربوشه مرة أخرى ويتفتف مرة ثالثة وكان الغفر يمســكون الأحصـنة ويقفون بعيدا .. وجاء شيخ الغفر وأخذ يضرب فى الناس ويقول « على ماذا تتفرجون يا غجر ؟ على ماذا تتفرجون ؟ جاتكم النيلة فى سنينكم السودة المهببة بهباب الفرن » وذهب الى الأحصـنة وأخذ يتحسس رقبتها .. وظهر أبو الحسن » الصـياد يسحبه الغفير من خناقه . قال العمده للرجـل الجالس «هـو ده أبو الحسن ياسعاده البيه» والرجل الجالس نظر فى وجه «أبو الحسن» رفى ذقنه الطويلة البيضاء وقال :

ـ ماذا رايت ياولد ؟

وضع .. أبو الحسن يده على صـدره وقال مثلما يقـرأ الفاتحة :

ـ طرحت الشبكة .. بعد قليل سحبتها .. وجدتها تقيلة .. قلت : خير يا رب .. شددتها .. فاذا به يطلع فى الشبكة .

والعمده يكز على أنيابه ويقول :

ـ وشك فقر طول عمرك .. وجه مصائب ..

قال أبو الحسن ورقبته تنكفىء على صدره :

ـ هل قلت له اطلع فى شبكتى ؟

شوح العمده بيده وقال :

ـ أكان لابد أن تطرح الشبكة فى هذه الساعة النحس ؟

و .. ابو الحسن يعوج راسه ويبكى :

ـ انه بختى الاسود .. فى كل مرة يطلع من المصرف وحده، فما الذى جعله هذه المرة ينتظر شبكتى .. ؟

والرجل الجالس ينظر الى «ابو الحسن» ويشخط فيه :

ـ أنعرف .. بالضبط .. من أين كانت الزكيبة قادمة ؟

و « أبو الحسن » يشير بيده الى الوراء « من هنا » فيصرخ فيه : (حدد من أى جهة) فيقول أبو الحسن من ناحية التفتيش .. نعم من ناحية التفتيش» والناس ينظرون الى بعضهم والرجل الجالس يرفع رأسه ناحية اليمين .. رجل واقف وبيديه دفتر وقلم ولايكف عن الكتابة ولما نظر الى الرجل الجالس كف عن الكتابة وانتظر .. فعاد الرجل الجالس ينظر الى «أبو الحسن» ويقول :

ـ لا تخرف ياولد .. أجب مثل خلق الله .. ما للتفتيش وللزكيبة هنا ؟ .. هذه زكيبة بها قتيل مجهول .. وانت عثرت عليها فى المصرف .. فما دخل التفتيش هنا ؟ قل انها قادمة من الشرق من الغرب ، من قبلى ..

« وأبو الحسن » يبلع ريقه ويقول :

ـ ما .. ما من أين يقبل المصرف يا سعادة البيه .. من ناحية الكردى طبعا..والكردى من مراكز التفتيش والمصرف أصلا.. يأخذ من مصرف آخر .. .المصرف الآخر موجود فى كفر الشيخ .. وكفر الشيخ هى .. الخالق الناطق .. التفتيش . صرخ الرجل وقف وبرطم بكلام كتبه حامل الدفتر والقلم..هاج الناس واختلطوا بالأحصنة . هاج الغفر وصاروا يضربون فصرنا نجرى ونختبىء فى الحوارى .

فان الذين يفهمون أن الفرجة كلها ستنتقل الى المصرف ، ومشوا فطلعت أجرى وراءهم حتى وصـــلنا زكيبة كبيرة ممدودة فوق الأرض ـ ذوبتها المياه أو أكلتها الأسماك كما قالوا• برزت منها قدمان ـ ويدان ورقبة لا رأس لها . وجاء الرجل الذى كان جالسا ومعه العمدة والأحصـــنة والغفر والرحال المقمطون •• وحين برز الرجل الذى كان جالسا صاح رجال « النيابة وصلت » وضربونا• وابتعدنا قليلا • ثم دخل الرجل ـ النيابة » وأخذ يقلب الزكيبة ويلوى بوزه ويبصق حواليه وينظر لحامل القلم ويقول كلاما فيكتبه وقال العمده :

ـ اليست مصـــيبة ياســـعادة البية ؟ ... لوان دماغه فى رقبته ، لكنا تعرفنا عليه فى الحال ••. المصيبة أنه يجىء دائما بلا دماغ •• فى كل مرة يجىء هكذا •• بلا دماغ • وقال الرجل النيابة : « ماذا تقصد بـ •• كل مرة ؟ » •

المصيبة أن العمدة ابتسم وقال « ليست هذه أول مرة ياسعادة البيه •• ليست أول مرة » قال واحد من الواقفين معنا « ولا آخر مرة » وقال آخر « يعلم الله على من سيجىء الدور » •

وقال الرجل النيابة « لا أفهم » •

وأما العمدة فانه قال :

ـ ياسعادة البيه .. هذا حادث يتكرر كل عام أو عامين أو ثلاثة أو أربعه .. لكنه يتكرر

أصبحنا نعرف ميعاده .. هذه المرة هبطت عليه شـــبكة الصياد •• انما هو كان يعرف طريقه •• يعوم فى الماء حتى يصل الى زمام بلدنا •• ويقف •• وقال واحد من الواقفين :

ـ يطلب اهله .. الغريب يحن لبلده ولو كان جثـــة فى زكيبة .. وابن يروح المسكين أنه لابد أن يرجع لبلده ..

واذا بالرجل النيابة يشير اليه بأصبعه ويقول : « تعالى هنا يا ولد » فاذا به الشيخ فرحات الأعمى المنادى ·· تقدمته عصاه ووسعت له الطريق ·· والعصا رأت مكان الزكيبة وقالت للشيخ فرحات فوقف بجانبها فصار أمام الرجل النيابة · ابتسم الرجل النيابة وقال :

ـ تعرف صـــاحب هذه الجثه ؟

هبط الشيخ فرحات وتقرفص متأبطا عصاه . ومد يديه وتحسس الجثة وجعر « عرفته ياسعادة البيه » ·· وكان هناك ولد القى حجرا فى المصرف فتناثرت الميـــاه على كل الوجوه وبرطم الناس كلهم وجرى خفير وراء الولد وصاح الرجل النيابة « كيف ·· كيف عرفته » وقف الشيخ فرحات قائلا : « رأيته » ·· وقال الرجل النيابة » ولكنك من غير مؤاخذة أعمى » ومد الشيخ فرحات رقبته أمام الرجل النيابة وقال :

ـ شف يابك أنا صحيح أعمى ولكنى أرى أكثر من أى واحد .. انكم ترون بعيونكم فقط وهذا هو سبب المصائب .. أما انا فأرى بعيون كثيرة : عصاى ويداى وقلبى وأذنى وصدرى .. ما أراه أنا قد لا يراه أحد المفتحين .. أعرف صـــــاحب هذه الجثه معرفة جيده .. نعم . هذه اليد سلمت عليها الف مرة .. هذه القدم انكسرت مرة وجبرتها .. فقد كان رحمه الله من الذين يقفزون كثـيرا يتسـلقون الجـدران لم يكن لصا انما ابن ليل ·· عنترى يأخذ حقه بذراعه · أما هذا الجسـد ·· المعبأ فى زكيبة ، فقد احتضـنته بقوة يوم سـفره ·· نعم ·· كنت واثقا أنه سيصبح جثـــة فى زكيبة ، ولهذا ، احتضنته بقوة فهو الآن حى بداخل صـدرى ·

انفجر الواقفون كلهم فى البكاء حتى العمدة هو الآخر بكى · اما أنا فقد أردت البكاء ولم أجد دموعا فسـكت . ونظر الرجل

النيـــابة الى حامل القلم وقال : « الجاني مجهول ·· مجهول والمجنى عليه ·· مجهول أيضا » ·· ونظر حواليه وقال : «أوسعوا طريقا»، لكن الســـماء صونت عاليا فرحنا ننظر ·· واذا بامرأة قادمة تجرى من عنـــد كباس المعلم عبده ، والريح تقابلها وتطوحها ، وتبعثر ثيابها السوداء .. وبدأ الرجل النيابه يمشي ولكن الواقفين كلهم ظلوا في وقفتهم لا يعبأون بصياحه والصوات يقترب والمرأة أيضا تقترب ، وكانت تشـــوح بيديها وتمزق طرحتها وتهيل التراب على رأسها وقد عرفناها ، وأوسعنا لها الطريق الى الزكيبه فارتمت فوقها تصرخ · وقال الرجل النيابة « من هذه » فقال الجميع انها « بسيونية » بائعة الطماطم والسكر والشاى والوظائف ·

***

·· كلنا نعرف بسيونية ·· تبدو أصغر من أمى ولكن الجميع كبارا وصغارا يقولون لها ياخاله يكلمونها بأدب شديد ، ويصدقون كل ما تقـــول . لها دكان يجلس فيه الناس وياكلـــون ويشربون الشاى والحساب يجمع كما يقولون لها · وفى كل محصول يقول الرجال لبعضهم ياللمصيبة أريد أن أدفع حساب بســـيونية وحين يريد أحد أن يشتكى أحدا فانه يذهب الى العمدة أما بسيونية فهى تنتظر العمده ساعة يجيء عندها يأكل الفسيخ ويشرب الشاى ·· مرة سألت أبى «هل بسيونية قريبة الملك» فضحك وقال : عقبال أملتك يا ابنى » فسكت فعرفت انها قريبة الملك بحق · ومرة ثانية ذهبت حارتنا كلها تستعطف بسيونية لكى تعطيهم مهلة يسددوا فيها ثمن الشاى والدخان لأن الوسية ليس بها شغل وحينما عادوا من عندها قالوا وهم يبتسمون أنها أكتفت بلعن ابائهم . فسالت أمى « هل بسيونية قريبة الملك » فقالت أمى :

ــ العقبى لى يارب ·· أشوفك مثل ابنها ·· انه يشتغل فى التفتيش أنه ·· ربنا يعطيك ·· سائس ·· سائس للبغلة

.. بغلة التفتيش يمسحهـا وينظفهـا وينظف لهـا ويسرح بهـا ويخدمها ..

ولحظتهـا قال أبي وهـو يتفتف ما علق بلسـانه من ورق البافره :

ــ ويشرب السجاير المكن .

فردت أمي :

همك وهم السجاير ؟

فيقول وهو يلعب حاجبيه « يامن يوصلني الى البغلة وأنا أريها » ..

فتغضب أمي وتقول « لا أمان لكم يا رجال .. كلكم عيونكم زايغة » ..

وأبى يقول بحرقة « لقد رأيتها . مرة واحدة . قشطة . فطير دماس » وتحيرت أنا مثلما تحير أخي مختار ، ولم نعرف شكل هذه البغلة التى هى قشده وفطير دماس ونركب الكارته وتبص من الشـباك وتغار أمي منها ، فيهجم أبى عليها ويطوقها بذراعيـه ويقول كما تموء القطط « أتصدقين .. ليس أغلى منك عندى » فتشد نفسها منه وتقول « كان الله فى عون الشبان الصغار » فيقول لها : « أنكره السعد يا وليه » (السعد يكون بالحلال أو لا يكون » فينظر فى عينيها ويقول « بزمتك ألا تتمنين أن يصبح ابنك سائسا لها ؟ » فتشوح بذراعها فى وجهه وتقول « فشر بعد الشر » فيبحلق فيها حتى تنكسر عينها ويقول « يا وليه .. لا تكذبى على روحك » فتقرصه فى وركه وتقول بغيظ يحبه دائما « قل انك أنت تحلم بها من صغرك » فيعوج رقبته ويغطسها بين كتفيه ويقول « الكذب خيبة .. هل أكذب عليك » فتشوح له « احمد ربنا .. عافاك منها » فيرد بسرعة « أصلى وش فقر » هنا ترفع يدها فى وجهه « كلكم مجانين .. تتصورون انكم تذهبون الى النعيم .. وتنسون أن

الآخرة دائما سوداء أو .. » يغتاظ أبي ويضرب يدها المرتفعة « هكذا الدنيا يا عبيطة .. أتزوجينها وتضمنين بختها ؟ الواحد يرى السكة التي توصله الى الجنة .. فيمشى فيها .. فان قابله الوحش وأكله فهذا حظه وبخته .. اسكتى اسكتى فانت لا تفهمين وأمى تمتلىء عيناها بالدموع ولكنها تبتسم : « كل من ذهب اليها انفتحت له ولأهله أبواب السعد .. لكنهم دائما يعودون جثة فى زكيبة » يضحك أبى كأنه طفل ويمسح الدموع ويقول « لو كان البعيد رجلا ما عاد جثة فى زكيبة .. نعم .. هذه هى الحقيقة . أتنكرها ؟ .. لا يرجع جثة فى زكيبة غير الرجل الهفتان ما يوجد فى هذا الرأس مخ أم بصارة ؟ .. الضعفان المرضان الهفتان لابد أن تكون هذه نهايته .. نعم هكذا ومن ليس فى حمل المشوار لا يمشيه .. ليس كل من عوج الطاقية صار حليوة .. ولا كل من زهر الجلابية صار شلبيا .. ولا كل من طوح النبوت صار عريسا افهمى يا وليه .. البغلة يلزمها رجل .. رجل عفى .. حتى فى عقله وأحلامه وغضبه..رجل يهد قواها..ويطفى حرائقها » .. فلا أدرى كيف تجىء الابتسامة وتحط على وجه أمى ، ولا أدرى أيضا لماذا تصر لحظتها أن نقوم أنا واخوانى لننام ...

***

.. بسيونية رمت نفسها فوق الزكّيبة وصرخت و .. هى صرخة واحدة لم أسمع غيرها لا .. أظن أنها صرخت مرتين أو ثلاثا « لا أذكر ولكن الصرخة لا تريد أن تخرج من أذنى حتى اليوم وصوتها كان مبحوحا : حاهه .. حاهه .. حاهه .. ثم سكتت .. وانفتح النـــاس فى البكاء .. كنا مثل المقابر صباحية العيد أو فجر الجمعة صوات على طول وبكاء وكلام داخل فى بعضه .. و .. بصراحة لقد بكيت أنا أيضا وأحلف أن الرجل

النيـــابة كان يريد هو الآخر أن يبـكى على انه صرخ ٠٠ « ايه مناحه ؟ » وأشار للغفر : « شيلو الوليه دى » فما تقـدم أحـد فصرخ مرة ثانية وبغيظ «قلت شيلوا الولية» ٠ وأيضا لم يتحرك أحد ٠٠ والرجل النيابة يكز على أسنانه وينظر حوله ٠٠ العمدة هو الذى انحنى ولمس ظهر الولية وقال « قومى الآن يا بسيونية ٠٠ قومى وما سيفعله الله يكون » والولية لم تقم ، انما لهثت وظلت ملتصقة بالزكيبة لا تتحرك ولا تتكلم ٠٠ وأخذ العمدة يقول كلاما مقطوما ٠ والرجل النيابة يصرخ به « كف عن البرطمة يا عمدة ٠٠ عندك معلومات فلها وخلصنا » ٠٠ والعمدة يفرد كفيه فى الهواء « أبدا يا بيه ٠٠ كفانا الله شر المعلومات ٠٠ لكن ٠٠ أصل الست بسبونية لها ولد مستوظف في التفتيش وظيفة كبرى ربنا يعطيك» والرجل النيابة يشوح فى وجه بسيونية « ما شغله ابنك ياولية » والعمدة يرد نيابة عنها « هو سائس بغلة التفتيش » والرجل النيابة يزوم وينظر لحامل القلم والعمدة يتنهد ويقول «مسكينة لا تلمها» ٠٠ ضاع ابنها زال عزها ٠٠ يعنى موت وخراب ديار » والرجل النيابة يهز يده فى الهواء ولكن من أدراها أنه ابنها ؟ ويرد العمدة : « أيتوه الواحد عن ضناه » فيشخط الرجل النيابة « لا تخرف ٠٠ نريد ٠٠ نريد دليلا ٠٠ ما هو ؟ » فيقول العمدة « الزكيبة ٠٠ والرجعة » الرجل النيابة يهز رأسه لا أفهم والعمدة يقترب منه فى هدوء لا يرجع هذه الرجعة ٠٠ داخل هذه الزكيبة ٠٠ غير الذين يشتغلون سياسا لبغلة التفتيش » ٠ والرجل النيابة يخبط رجله فى الأرض:

ـ ماذا تقصد بهذا الكلام يا عمدة ؟

ـ هذا ما يحـدث ٠٠ أنا الذى يقوم بالاختيار ٠٠ نجمع شـبان البـلد ونفرزهم بالفرازة ونختار منهم واحـدا ٠٠ ثم نرسـله ٠٠ بعـد سنة ٠٠ سنتين ٠٠ ثلاث يرجع هـذه الرجعة السوداء .. ولا بد أن يكون بلا رأس

ـ وكيف نعرفون أن الذى راح هو الذى عاد ؟

ـ كثرة الحزن تعلم البكاء يابيه ·· الزكيبة تصل من هنا ·· و ·· يا دوب نخلص من دفنهـــا ·· ويجيئنـــا الأمـــر ·· ·· نسيت ·· في العادة ·· تجيء الســـنيورة كما يسمونها هنا وهى زوجة الناظر وتشهد احتفالا بالطبل والزمر بمجرد وصولها يقام وتجمع له الأنفار من كل البقاع ·· أنها المسئولة عن اسطبل التفتيش كله .. ولذا فهى تحـب أن ترى بعينيهـا .. الواقع أنها تبدى اعجابها بهـــذا أو بذاك ·· ولكننى فى النهـــاية أتحمل المسئولية وحدى اذا لم يعجبها الشخص الذى اختارته فأقوم أنا بالفرز بمعرفتى الخاصـــة لأني أعرفهم جميعا أكثر منها ·· اليوم يا بيه ·· اختل الزمن ·· جاء الطلب وجاءت الزكيبة فى لحظـة واحدة ·· واني لا أدرى هل أشارك في قيام الاحتفال أم فى تشييع الجنازة أم فى الاثنين معا وفى نفس ـ اللحظة ؟ ··

ـ لم توضح لى ·· أى طلب تقصد ؟

ـ ما يجيئنا .. مطلوب سائس لبغلة التفتيش بمعرفتك يا عمدة ·

ـ فلم لم تسألوا عن السابقين ؟

ـ منذ سنوات لم نعد نسأل ·

ـ لم ؟

ـ لأن الجواب واحد يا بيه ·· لا يتغير أبدا : ضربته البغلة فى مكان حساس .. فمات ...

ـ اذن فأين جثته ؟

ـ فقدت ·· هذا ما يقولون ·· لكن الجثة كانت تجيء ·· وتطلب الدفن ونتعرف عليها رغم أنها بلا رأس ..

ـ الا يذهب احد الى التفتيش ليرى ..؟

ـ لا احد هنا يعرف مكان التفتيش .. انا نفسى لا اعرفه .. الناظر يجىء الى الكردى ويتسلم الشخص منى .. و ..

وقالت بسيونية :

ـ بغلة ·· ما ·· عندها ·· أصل ·· آخر المتمة ترفسه برجلها » · ثم أنها طوحت رأسها شمالا ويمينا وصرخت ، ياكبدى وسارت تضرب رأسها فى الأرض بشدة وتقول : «ياكبدى» حتى سال الدم من رأسها وأغرق وجهها ·· وقال الرجل النيابة : « لابد من أخذ أقوالها » وانحنى العمدة عليها وقال : « كلمى سعادة البيه يا بسيونية ·· قولى له كيف تعرفت على ابنك » ·· وبسيونية لم تتكلم ، انما تربعت وشدت الزكيبة على ركبتها وظلت هكذا برهة ثم انكفأت وسحب الرجل النيابة نفسه ومضى فتبعه كثير من الواقفين ·· لكنه استدار ، وأمر أن يبقى فى حراسة بسيونية والزكيبة ·· خفيران ···

الفصـل الثالث ..

«معاطى» لا يريد أن يتكلم
فى الموضوع... ولكن..

الناس يسألوننى عن السبب .. والله ما أعرف السبب . تعبت من قولة : لا أعرف حرمت على نفسى الغناء فى الأفراح كما حرمت الرقص ولعب الحطب .. انكسرت والله نفسى والناس هم السبب ان غنيت حتى تطوحوا من الاعجاب قالوا : وهم يتحسرون على « ما خلاص .. ضاع تعبك يا معاطى بل ضاعت الدنيـا من يديك فعـلام ترقص الآن وتلعب ؟ » وكأننى لم أكن أغنى وألعب الحطب وأرقص الا من أجل عيون السنيورة . والسنيورة أختارت حمارا .. فما الذى يمنعنى من الغناء طالما أننى لازلت أعشق السنيورة ؟ لكن من يقرأ ومن يسمع ؟ اننى صريح اتمنى أن تختارنى السنيورة أنتم أيضا صرحاء وتعرفون كل شيء . لا تجعلوننا نفسر أكثر من هذا ولا داعى للاحراج .. أنتم جميعاً كنتم ولازلتم ــ تتمنون أن تختاركم السنيورة .. حتى «أبو خليفة» زوج أختى .. الرجل الذى عنده بنات للزواج . يقولون اننى لما رقصت ولعبت الحطب أمامها كنت أحسن من رقص ولعب . وكنت ــ بشهادتهم ــ أكثر الشبان شبابا ورجولة . ومن الحق أن السنيورة اختارتنى نعم اختارتنى

انا من بينهم جميعا . اعرف هذا ويعرفه الناس كلهم .. ولقد ظللت طول الليـل اسأل واطقس ، وجئت برأس كبيرة من أهل الكردى ووسطته لدى السيد قاقا ، وفى نفس الليلة جاءنى وأبلغنى أن الأمور عال العال وأن السنيورة سألت عنى مرتين · فى المرة الأولى حين لعبت الحطب مالت على الباشخولى وقالت له « اسمه ايه الولد ده » فقال لها عن اسمى · وفى المرة التانية حين رقصت مالت على الناظر وقالت « اسمه ايه بتقول » فقال لها أيضا · أليس هذا هو الاختيار ؟ والرأس الكبيرة التى وسطتها تقول ان خفاجة نزل من السراية خصيصا ليجمع أخبارا عنى أليس هذا هو الاختيار ؟ أما ما حدث بعد ذلك فمعروف للجميع · مسألة أن العمدة يختار على مزاجه مسألة لا أحب أن أتكلم فيها · يكفى أن السنيورة اختارتنى · يومها وصـــلت الى دوار العمدة فى الصباح . لم اجد احدا من شبان البلد لم يكن هنـاك غير مجمـوعة من العجائز ·· أمثال « أبو خليفة » اندهشت تخيلت أن الفرز انتهى من صبيحة ربنا · وكان فى نيتى الا اسأل . فمعروف للجميع اننى خلاص اخترت .. غير اننى وقفت الى بعيد احاول معرفة ماذا تم فى الأمر . ووالله كنت قبل خروجى من الدار قد نبهت على أمى بعدم الصوات وعلى أخوتى بعدم دق الطبل أو اطلاق الزغاريد وعلى أصـــدقائى بعدم تفريق الشربات · ليس لاننى أردت السفر دون شوشرة ، وانما المسألة غير هذه المسألة ان ابن بسيونية كان رحمه الله من أعز أصدقائى والمسألة ·· أن تفريق الشربات والزغاريد ودق الطبل .. يعنى أننا فرحنا .. وبطلب أن يجىء الناس ليباركوا انما لا .. أن اختيارى عملية فى محلها فهل تزغرد النخلة حين تطرح بلحا ؟

.. تلكأت عند دوار العمدة كانت هناك شـوشـرة كبيرة وسمعت كلاما كثيرا ، ولصقت بدماغى كلمات كثيرة «ياسبب سعده» « يا فرحة أهله » ايش «حايكفيه» ياحرقة أمه عليه » فقلت أنهم لابد

يتحدثون عني أنا .. وبينما كنت أرفع جلبابي السكروته وأتهيأ للمرور أمامهم كانني ذاهب الى الحقل او الى مشوار وكانني لم أسمع ما يقولون رآني أحد العجائز وكان متمطرقا على مصطبه أمام الدوار فقال بتشف احرق قلبي : «ايوه ياعم ٠٠ محمود قنديل ٠٠ هو الذى كان يجب أن يفوز بها » فتسمرت في مكاني وقال عجوز آخر بجانبه « لقد بعثوا له من يجيء به من عزبة الطوال فهو لم يعلم بالخبر بعد وقد تم اختياره وهو بعيد عن البلد » الدم غلى في عروقي ٠ الحق انني ظننت أنهم يغيظونني ومع هذا لم أجـد ما أفعله فتصنعت أنني نسيت شيئا واستدرت فجأة عائدا ولكن دون أن أنظر اليهم . هنا قال واحد من الشبان الجالسين مع العجائز محمـد بن عبادة « والله ان هذا لشيء يفقع المرارة ٠٠ وماذا في محمود بن قنديل حتى يختارونه لعمل كهذا .. انه خرع وطرى ٠٠ وحليوه أكثر من اللازم ٠ هل تطلب البغلة رجلا أم كف حلاوة ؟ ٠٠ » وصاح عجوز يجلس بعيدا « ليس لنا دعوة بهذه المسائل ياولد .. أسكت .. مالك انت وهذا ؟ وكف الجميع عن الكلام . أما أنا فقد انطلقت أجرى نحو ترعة خلاف ، وخلعت ملابسي وقذفت نفسي فيها وخيل الى أن ماء الترعة ليس باردا ٠٠ بالقدر الذى يريحني ..

***

تحت شجرة التوت الكبيرة صحوت من النوم وكنا في ساعة العصارى . كنت كأنني نمت حولا كاملا . واستغربت : كيف صحوت ؟ مع انني حين القيت بنفسي تحت الشجرة كنت أتمنى ألا أصحوا أبدا ٠ ودخل ٠٠ محمود بن قنديل في دماغي ولم يشأ الخروج منه ٠٠ » محمود بن قنديل » ذلك الصبي النحيف؟٠أنني غير معجب به ولا بمنظره رغم أنه يخشى بأسي ويحترمني ٠ أطيق العمى

ولا أطيقه بوجهه المسحوب في نعومة كوجه فتاة محجبة وجلبابه السكروته الذى ورثه عن خاله ابن الليل القديم ، وقصره الخياط على قده ، اللاسه التى اشترتها له أمه بثلاث كيلات من القمح ، الشبشب العمولة يطرقع فى كعبيه وهو يمشى مثـل عروسة فى الصباحية ما يغيظنى فيه انه يصدق الاشاعات التى يقوم هو بنفسه بصنعها حول نفسه . المجنون الأهبل يصدق أنه فعلا يخاوى جنية وما أدراك ما الجنية .. « اختارتنى أنا وما ذنبى وعموما لا أحب أن أتكلم فى هذا السر والا خنت العهد وينقسم وسطى فى الحال » .. على فكرة أنا أحبها كلام فى سرك يافلان أحذر أن تقوله لأحد. نعم أنا لا أحبها كثيرا لأنها تمنعنى عن أصحابى ومن أشياء كثيرة لا تعجبها فى هذه الحياة » « اسمحولى الليلة يا اخوان أنا الليلة ممنوع من شرب الجوزة ، نعم جاءنى الأمر بذلك فعلا فلا تغضبوا على أن كنتم لا تريدون أن أسخط قردا » .. « آه .. لقد تذكرت السلام عليكم .. ربنا يستر ماذا أقول يارب ماذا أقول .. أن لم ترونى بعد ذلك لمدة كبيرة فاعلموا أننى أمضى فترة العقاب فى حضنها فى مكان لا أعرف عنه شيئا .. « ايه يا أبا حنفى .. لقد عدت فهل حظيت بالرضاء ؟ » .. لا لا ملعون أبا الكل كليلة . لقد هربت ملعون أبا الكل كليلة : هل ـ تستعبدنى بنت جهنم الحمراء ؟ » .

أقسمت بالطلاق من ذراعى كما تقول النسوان ، ومن حياتى كما يقول الفتوات ان هذا المفعوص يضحك على ذقوننا جميعا . اننا لا نحرجه وهو يصدق اننا نصدقه ويصدق نفسه حين يقول أى كلام . كان الأولى به أن يذهب الى الخانكة والحقيقة اننا جميعـا ننتظرها له : أقسمت بالطلاق من حياتى أن الدنيا نفسها خانكة حتى تأخذ هـذا الولد وتضعه على حجرها : أخشى أن يكون هو العاقل الوحيد فينـا . كل واحد فى البلد يعرف أن محمود بن قنديل عنده لطشة فى عقله و .. ياللمصيبة لـ..لـ..لقد تركناه

يفعل ما يهوى ·· فهو أهبــل ·· وكيف نحاسب الأهبــل كم من مرة رأيناه يقرص البنات فى أفخاذهن ثم نضحك بدلا من أن نناوله بالكف على صدغه الله أعلم ماذا فعل فى الخفاء ·· بعيدا عن أعيننا··

انما لا ، المسألة فيها سبب آخر العمدة رتب لهــذه الفعلة منذ سنوات أفلا تذكرون الرجال الثلاثة أو الأربعــة الذين وقع الاختيــار عليهم فى الســــنوات الأخيرة كان بينهم وبين الرجولة والجدعنة مسافات طويلة · العمدة يقول ان التفتيش أوصاه ـ بشرط الحلاوة فى الشخص المطلوب ، و ·· « ضرورى يا أهالى البلد أن أنتقى ولدا حلوا ، صحيح التفتيش يطلب رجلا عفيا يتحمل بغلته الشرســة ولكن لا تنســوا أنه ·· سيكون دائما فى وجه الســــنيورة ، لأن البغلة فى منزل الناظر والناظر هو زوج السنيورة طبعا طبعا لابد أن يكون الولد أحلى من السابق أليس حواليكم شــبان أحلى من هذا ؟ لا حظوا انهم يصرحون لى الاختيار من اى بلدمجاورة أنما انا طبعا ارى أن بلدى أولى بالخدمة من غيرها فلأجل خاطرى ساعدونى على خدمتكم لما أطلب منكم شيئا أكثر من أن تسكتوا ـ ولو اننى كنت أنتظر منكم شيئا غير هذا ·· أتمنى مثلا أن يجىء واحـــد من الشبان ويقول لى : لا داعى للاجتماعات ياعمدة ، دع الناس فى شغلهم ولاداعى لأن ينادى المنــادى ويتعطل الرجــال كلهم طـول النهار لكى يحضروا الفرز ·· لا تتصوروا مقدار سعادتى يوم أسمع مثل هذه العبارة من احد منكم ، على الأقل سأعرف ان بلدى قد تنورت بحق وسيفتح الله عليها ، اليست تمنحنى الثقة فى أن أختار بدون شوشرة أو وجع للدماغ فى الفرز ؟ .. وماذا فى هذا ؟ .. اننى أعرف البلد فردا فردا وخصوصا ـ شبانها··انهم أعزاء عندى ، تعودت منذ سنين أن أظل أراقبهم من طفولتهم حتى صباهم وأكاد من حرصى عليهم أتولى اطعامهم بنفسى والعناية بهم حتى تمتلىء أجسادهم بالحياة

والحلاوة . . طبعا من واجبي أن احمل همهم من صغرهم فأنا أريد أن يجيء اليوم الذى يجعلنى ـ بمجرد تلقى الاشارة ـ أفتح بابا ما ، وأستخرج الولد في الحال . وأقول له . . اذهب الى النعيم فقد خلقت له وما انا سوى سبب هيأته لك السماء لكن متى . . متى تحققوا لي هذه الأمنية ؟ .

. . أصابعى كلها بل جسدى كله وضعته فى الشق من هذا العمـدة . . وطربة الذين ماتوا لى انك يا عمـدة رجل ملعب من طقطق لســلامو عليكو . . انه يحيرنى مثلما حيرنى محمـود بن قنديل . احلف على الماء يجمد ان محمود بن قنديل لم يكن عبيطا ولا مجنونا . . أنا لا يدخل دماغى كلام العمـدة ومســألة الحلاوة هذه من اساسها لاتركب ذمتى بمليم أحمر العمده يختار لغرض فى نفســه ومحمود بن قنـديل له صلة أكيدة بهـذا الغرض الذى فى نفس العمدة ملعون أباه وأبا السنيورة والعمدة والتفتيش كله . . انما تعالى هنا ياولد . سـيقول الناس كلهم أن الغيرة قتلتك . غيره ؟ . . انا أغار من ولد كهذا ؟ اننى حزين من أجل السنيورة فقط ، وأغتاظ لأن البغلة لن تحتمل طرواته وسوف ترفسه فى محاشمه من أول طلعة . مالى انا ولهذا . ســوف أذهب اليوم وأبارك له كأى واحد من أصحابه سأكون أول الراقصين وآخرهم وسوف لا تكون القعدة حلوة الا بى .

***

الشارع كله ساكت . . يخيل لى أن جميع ســكانه تركوه وراحوا يدبـرون فى الخفاء مؤامرة لايمكن أن يكون هذا السكوت سكوتا بحق ، وهذا الشارع بالذات لايسكت أبدا انه الشــارع الوحيـد في البلد يشغي بالخلق طـول الليل والنهار أنه كما نعلم شارع رئيسى من شوارع الرحبة . . والرحبة طبعـا هى البرحاية التى تتقابل عندها كل شوارع البلد وحواريها أى أن الرحبه فى

وسط البلد هي قلب البلد .. وليســت الشــوارع والحوارى وحدها تتقابل فى الرحبة دعونا نحب الصراحة مرة ، وخصوصا الآن ان البلد كلها فى خطر ان لم تعرفوا بعد . ان محمود بن قنديل أول واحد يطلع من الرحبة ونعلو مراتبه ·· أنتم غافلون · من غد سيكون أجدع من فيكم مطية لأقل واحد فى الرحبة وما أدراكم ما أهل الرحبة هل أتكلم أم انه لا داعى ؟ عقلى يقول لى انكم دائما لا تحبون التفكير فى ـ « مسألة الرحبة · انها فى نظركم سوق قائم على زبانه ، والشىء الذى لا يرد الى السوق يوم السوق لسبب من الأسباب اسأل عنه فى الرحبة أى شىء يخطر على البال تجــده فيها ، كل الأشياء لها باعة ولها مشنرون وكل الأسعار لا تطلع الا من الرحبة وكل ما يضيع بين الناس أو يسرق منهم قمحا أو قطنا أو محراثا ناقا أو ماشية أو حتى أطفالا صغارا يذهب بقدرة قادر الى الرحبة فتبيعه لصــاحبه من جديد ·· هكذا عينى عينك لا احم ولا دستور ··

الآن لا أقول مثلما تقولون دائما أنتم تبتسمون فى عبط : آه من الرحبة ونوادر الرحبة · انما أقول : آه منكم أنتم لم يشغلكم سوى أن صاحب الســعد هذه المرة هو محمود بن قنديل . لم تعرفوا طبعا ما الذى سيحدث لكم بســبب ذلك .. من يــدرى لعلكم تنسون هذا بمزاجكم .. وهنا يقع الكلام .. وماعندى من كلام هو بصراحة وبكل صراحة أن المشى فى الرحبة يحتاج من المرء الى عدم التفكير فى حياتــه أن كان بائعا سريحا حــلاوة لســان وانكســار ان كان من اهل البلد العاديين وعلانية وشفاعة ـ بالنبى ان كان مشــتريا .. آه .. منكم ياخلق اتراكم فى حاجة الى أن اذكركم بأن هذه الرحبة التى هى فى قلبكم يسكنها نوع غريب من الناس طردوا من كل أسواق الدنيا فنصبوا لأنفسهم سوقا ثابتا فى بلدنا واصبح سلكهم بوضع اليد وعاشوا بيننا بالذراع والاجرام

كل ما هنالك انهم لا يفعلون ما نفعل ولا نفعل ما يفعلون لا يعرفون طبعنا ولا نعرف طبعهم كل شيء عندهم « وماله مايضرش » لا أحد منهم يعرف أباه اذا ما وضـــع بجانب المليم لا يعـرفون الضرب بالايدي ســاتية العراك فايايديهم دائما ســـواطير وســكاكين وبلط وعامود للشمســـية وصـــنج الموازين وحديد القبـاني ورمانته . الرحبة تنشر فى بلدنا فسـقا وفسـادا وعما قريب ستخضع بلدنا للرحبة . أنا مالى . جئت لأهنىء الأخ محمود وكفى .

الفصـل الرابع ..

« حفنـاوى » خادم التـور

يحكى : كيف..وكيف..وكيف

كنا نجلس فى منـدرة محمود بن قنـديل . حينما سـمعنا صواتا .. وقلت فى نفسى «خير يارب» ساعة ما كنا فى بيت العمدة مساء الأمس وأنا خائف فقد أخبرنا العمدة اننا يجب أن نجعل بالنا من أنفسـنا ونضع عنينا فى وسط راسنا و .. الحكاية لن تمر بسلام .. وانتم تعرفون أن السنيورة أختارت ناسا غير محمود.. ولكنى لسـت عبيطا حتى اوافق عليهم .. طـول عمـرى احب الجدع ــ يعنى محمود .. واريد ان اخدمه .. فالحمد الله جاءت الفرحة ... والحق انه ابن حلال مصفى « ثم نظر ناحيتى فنظرت اليه فعاد ونظـر فى قلب نظرتى وظل هكذا مدة طويلة ونظـر الى محمود قائلا « الولد ده بيبص لى كده ليه » فابتسم محمود وقال له انى على نياتى ولا أقصـد أى حاجة .. ألا تعرفه ؟ فقال العمدة كأنه لم يرنى من قبل أنه حفناوى على ماأظن الذى يسرح بالثور عنـدك . فوافق محمود برأسـه ثم قال اننى أيضـا راجل جدع وأخدمه و : « أن شاء الله سـاترك له الثور يشـغله ويحاسـب والدتى أو لا يحاسبها فهو حر .. نعم سـأوصى ببقائه فى خدمة

الثور طالما انا حى » فضحك العمدة مقدما ثم قال « .. لا وأنت الصادق .. طالما ان الثور حى » وضحك محمود كما لم يضحك فى حياته من قبل .. وعاد العمـدة يواصـل النظر الى ومنظره يقول انه متشكك فى العبـد الفقير تم مال على أذن محمود وهمس كعادته بصوت عال كأن العمودية لا شىء غير صوت عال : هوا ٠٠ الأخ ده ٠٠ يعرف ٠٠ كل حاجة عن ٠٠ شغلك و » ٠ ابتسم محمود وقال : « لالالا اطمئن أنه لا يعرف أى حاجة عن الموضوع الذى فى بالك .. حتى الأمانة التى بعثتهـا لك معه لا يعـرف ما هى .. وعموما لا تنشغل به » هىء ٠٠ ان كان محمود يدعى العبط على الهبالة والعمدة يدعى البراءة فأنا أيضـا يجب أن أكون حمارا كبيرا من أجل المصلحة فقط ماذا يفيدنى اذا عرف العمدة أو غيره أن الامانة التى اعطيتها له هى الفلوس التى طلبها من محمود مقابل اختياره سائسا لبغلة التفتيش ؟ انما فى الغـد سيسافر محمود وسأبقى أنا والثور وأم محمود ولن ينفعنى أحد ٠٠ وعلى حس محمود سأعيش فى الدنياعيشة راضية ... من طلعة النهار لم ألامس الأرض فكان على أن أسحب الركوبة وأجرى الى عزبة الطوال أنادى محمودا كما اتفقنا مع العمدة ـ العبيط لا يعرف أننى أعرف هذه أيضا وكان محمود قد راح الى عزبة الطوال فور خروجه من بيت العمـدة فى عز الليل فى جنح الظلام فى ملابس غير ملابسه لا لشىء الا لكى الحق به فى اليوم التالى وانقل له الخبر وادعوه للمجىء .. كثير من الحمير أمثاله وامثـال العمدة وأقارب عزبة الطوال لا يعرفون أننى أنا الذى ربيت محمـودا هكذا ـ وعلمته كيف يكون العبط على الهباله مسألة منجية من كثير من المخاطر ـ أنا حفناوى ربيت محمودا مثلما ربيت توره ٠٠ ونفع الاثنان علمته كيف يلف على العمـدة ويأخـذه فى عبه ٠٠ ولا أدرى ما الذى سيفعله بدونى حين ، يصبح وحده أمام السنيورة والبغلة ٠ ساعة كنا عائدين من العزبة كان يريد أن يخترق السكة الى الدار ولكننى

صممت على أن نمشى من وسـط البلد حتى يعرف النـاس كلهم انه جيء به الآن وانه لم يكن يعرف شيئا من قبـل عن مسـألة الاختيار ..

.. من سـاعة ما وصـلنا وأنا لم القط النفس .. وقلبى منقبض لا أعرف لماذا ولولا اننى اسـتطيع أن امسك نفسى مدة طويلة لوقعت من يدى صينية الشـاى مائة مـرة ولوقعت أنا نفسى مئات المرات ..

ارتفع الصـوات أكثر وأكثر ·· وارتفعت معه « غاغة » كبيرة توقف الكلام في المندرة ـ و « طرطق » الجميع آذانهم نحو الشبابيك وبدأ بعض الموجودين يخرجون ورأيت محمودا يتلكأ فى الخروج فتلكأت معه أنا الآخر حتى لم يعد فى المندرة سوانا رأيته فى حالة لا تسر قلت اعلها الفرحة .. لكنه تمتم «و.. وبعدها لك يا فكيهة .. يومك لن يفوت على خير اعرف انك مجنونة وأخشى أن يكون عقلك قد ذهب » فكيهة ؟ هذه مصيبة جديدة الحق انهـا مصيبة قديمة .لم أكن قد فكرت لها فى حل كيف نسيتها ؟ ضرب محمـود الارض بقـدمه ومشى يسب ديك الحريم وما يجىء من جرائهن ·· فمشيت وراءه أستعيذ بالله مما فى علم الغيب ··

***

اندفع محمود ·· قطع الزقاق الضيق فى لمح البصر فصار فى قلب الرحبة .. لم يكن هناك مكان لنسمة هواء ـ الرحبة مزدحمة بالناس وكلهم رحبويون على الآخر .. الجلاليب الملطخة بالزيت والعرق ، ضيقة الأكمام قصيرة الأطواق ، الكلام الذى يبيعون به ويشترون لسانهم المعووج دون أهل البلد الأصليين ، كلامهم واحد فى كل حاجة ، كلام البيع هو نفس الكلام الذى يطلبون به النوم

مع زوجاتهم ويتشاتمون به ويتعاركون عليهم لعنة الله أنا حفناوى الذى ولدتنى آمى فى حقل البوص فى الصعيد وعشت مع الذئاب ومع الثعالب وأولاد الليل لم أجد احدا فى وساخة الرحبويين وحتى الآن لا أعرف كيف أعيش مع أهل الرحبه ·· وكنت فى النهاية أقول « رب ضارة نافعة فلولا وجود أهل الرحبة فى وسط هذه البلدة لما أصبح أهل البلدة أنفسهم مؤدبين هكذا · فالعراك اذا نشب فجأة بين اثنين أو أكثر من أهل البلدة تفضه فى الحال كلمة واحدة يقولها رجل فائت يقول : « احنا فى الرحبة ولا ايه » وهنا لا يكف العراك فحسب بل يكتشف كل من الطرفين المتعاركين – فجأة – أصله وتربيته التى هى على الغالى · أما فى داخل الدور فان شخط رجل فى زوجته بكلمة قبيحة فالزوجة تنظر اليه فى دهشة وتمصمص شفتيها قائلة : « لعلنا فى الرحبة » فينكس الرجل رأسه فى خجل ولا يمحو شعوره بالوضاعة الا أن يبقى طول الليل يتودد الى زوجته ويداعب أطفاله على غير العادة ·· اننى فى الأصل من هذه البلد ولكننى فى أوقات كثيرة أضيق بالناس وأكاد أصيح أننا جميعا رحبوبيين مهما تبرأنا من سلو الرحبويين وألسنتهم ·

ما أن ظهر محمود حتى سمعنا كلاما حنفشاريا من كلامهم الفارغ :

– هى غلطانة .

– ما كان هناك داع للفضيحة ··

– فضيحة ؟ لماذا ؟ .. هل كان هناك شىء مختبىء ؟

– مهما كان فلا يصح .

– يصح أو لا يصح مالك انت ؟ .. أتجعل من نفسك ابوكاتو .. ؟

ـ روقوا يا جماعة .. صلوا على النبى .

ـ لا نبى ولا ولى .. لا تدوشوا دماغنا ..

وقفت ادقق فى الوجوه المحيطة بنا بينما ندفع الاجساد لنمر فاذا بين الوجوه وجوه ليست من أهل الرحبة .. وكان معاطى يسير خلفنا واذا به يتوقف .. ايه يا معاطى ؟ .. فقال ان الخلاف وقع بين البلد والرحبة ، وصفق بيديه قائلا فى تريقة « يا هادى يادليل .. ياهادى يادليل .. ليلتنا ورد باذن الله » . قلت له : « امشى يا معاطى ولا دخل لنا بأحد .. دع الليلة تفوت على خير » فمشى ولسانه يمشى بجانبه :

ـ حكاية يصح ولا يصح هى بيت القصيد .. طول عمرنا نقول لا يصح .. وتقول الرحبة يصح .. لكن الآن .. مادامت الرحبة تقول يصح .. فخلاص .. يصح على راسنا وراس ابائنا .. من الليلة ستكون الرحبة هى صاحبة الكلمة فى البلد .

ارتفع صوت لم أعرف صاحبه :

ـ أتعيب فى حق الرحبة ؟

استدار اليه معاطى :

ـ اربى نفسك يامن تتكلم .

ارتفع صوت آخر :

ـ دعك منه يا معاطى .. انه مخلوف الصفطاوى وانت تعرفه.

وضحك معاطى قائلا :

ـ أهلا سى مخلوف .. صرت أنت الآخر تتكلم .

مخلوف أضعف واحد فى الرحبة وأعلاهم صوتا ، عمره ما تعارك الا بالصوت فحسب أما الآن فقد رأيته يزيح الناس من

حواليه ويندفع نحو معاطى يريد أن يضرب ويسيح الدم : أعرف ان معاطى يمزح كعادته فربما كان هو الوحيد الذى تسمح له الرحبة أن يمزح معها وبنفس كلامها والعادة أن يضحكوا لأنه قلدهم ببراعة ولانه ولد حلو اللسان والطبع ويرفص فى كل الأفراح سحبته من يده لأقصر الشر ولكن أحدا من أهل الرحبة لم يسحب مخلوقا انما تركوه يتدافع وراءنا والى أن صرنا بعيدا عن الزحمة كان يشتم ويسب .. سحب معاطى نفسه من يدى ـ ووقف يبتسم ولما لم يتحرك أحد ويقول « عيب يا مخلوف اختشى » أمسك معاطى ذراع مخلوف ولواه بسرعة وطوحه على الأرض فنزل كما الجوال ساكتا وبقى معاطى واقفا والغضب يرعشه نهض مخلوف من الارض يلهث كالكلب السعران ودب يده فى جيبه وأخرج مطواة وفتحها وهجم بها على معاطى لكن معاطى ـ كما يرقص بالضبط ـ رجع بسرعة وشنكل مخلوف وطوح به فى الارض مرة ثانية فانغرزت السكين فى الارض فداس معاطى فوقها بقدمه وطوح الاخرى فى وجه مخلوف كأنه يضرب كلبا شريدا ..
هنا صرخ مخلوف كما النسوان وقال « اسنانى واذا بضحكه ترتفع حتى من فمى ومن فم معاطى فمخلوف ليس فى فمه سنة واحدة .
وبهذه الضحكه زال الخطر وبقيت فى الجو كلمات « قم ياحلو قم» « قم يا فتوة يا أبو سكينة » على ان شقيق مخلوف ظهر فجأة ممسكا بنبوت » راح يزعق ويصرخ :

ـ أيجىء ليضربه هنا .. أيجىء ليضربه هنا ؟

ومن خلفه أصوات رحبوية عالية :

ـ لابد أن يخرج من هنا الى القبر ..

ـ يخرج مفتتا .. نعمله كفته ..

ـ اصلكم نسوان حتى تتركوه يضربه ..

ـ دعوه لى وانا ابصق فى مؤخرته ..

اندفع اليه معاطى كما الاســد .. خرجت يــده من فتحا جلبنــابه الجانبية ممســكة بطبنجة كبيرة يعرف الجميع أن أباه احضرها من الحرب العالميه بعد ان قتل ضابطا كبيرا وتطايرت في السماء طلقات الرصاص . دب الفزع فى الجميع وانهارت الاجساد فوق بعضها وافعة واتسعت الارض تحت معاطى ومخلوف ممدد على الارض يمســح الدم عن فمه ويجعر باكيا ومعاطى ــ يجعـر شاتما .. :

ــ لا أحد يملأ عيونكم ياواطئين ياكلاب ؟ .. وشرف أمي لأربينكم واحدا واحدا هاأنذا أريد ان اروح الليلة فى داهية .. سأصور هنا عشرين قتيلا ...

وصاروا يبادلونه الجعير وصوتهم يعلو وينخفض ويختفى في الحوارى ·· وفى هدوء شديد تبعنا معاطى الى دار فكيهة ··· ثم اختفى .

***

خرمت فى حارة الفرارجي ودخلت دار الفرارجي نفسه ·· رأيت محمود ينهال ضربا على فكيهة كأى رحبوى أصيل ويقول: «هس اخرسى يا لبؤة » وامرأة عجوز تجلس في ركن القاعة وتقول مولولة « الفضــيحة ·· الفضــيحة ·· منك لله يا مقصوفة الرقبـــه » وقالت امرأة رحبوية لماذا يضربها ·· أله عليها ضرب ؛ وقالت أخرى طبعا انه خطيبها وسوف يتركها بحسرتها ·· وصاح محمود فى وجه فكيهة « لا أحد يبكى على ·· انت خطيبتى كما أنت ، وملت على محمود وهمست فى أذنه « سمعت انها حملت منك في الحرام فشف لك حلا من الآن وصــاح محمود كأنه لم يسمعنى « قبــل مغادرتى للبلد سأعقد عليك ·· خلاص انتهت المشكلة يا أسيادنا·· فارقونا اذن ليذهب كل منكم الى داره قبل أن أهزئه ، واندفع يشق لنفسه طريقا ·· ومضى الجميع خلفه مثل ظله ·

رجع الذين بعثهم محمود الى دوار العمدة وقالوا ان الدوار ليس به احـــد وخمنوا ان العمـــدة وشيخ البلد مشغولان بدفن الجثة وبتصريح الدفن والبحث عن بسيونيه وعن مكان يغســـلون فيه الجثه وفلوس لكفنها ومكان لدفنها فبسيونيه فى الاصل ليس لها مقبرة وقلت انا انه لم يكن من الواجب أن نرســـل للعمـــدة فالمفهوم اننا لا نعرف شيئا عن الأمر الا مجرد كلام وقال ابن خال محمود «سيجلس محمود معززا مكرما حتى يجىء الخفير ويطلبه» وقال ابن عم محمود « وهل الخفير من قيمته ؟ .. انه لا يتحرك من هنا الا بمجىء العمدة بذات نفسه » . واذا بمعــاطى عليـــه اللعنة ـ موجود فى القعدة ثم لا تفوته « الواحدة » أبدا « لا وانت الصادق .. محمود لا ينبغى أن يتحرك من هنا الا اذا جاءته البغلة بنفسها » . وفرقعت ضحكة كبيرة كان محمود أول من بدأها وآخر من أنهاها ثم نظر الى معاطى نظرة لها معنى وابتسم « والله لو عرفت قيمتى لجاءت ورجلها فوق رقبتها » فسحبه معاطى من أذنه بشارة من اصبعه ومال هامسا فى غبطة « ونأخذها لتستحم فى الترعة » ورجع محمود برأسه ساحبا ذقنه . وهل هذه تستحم فى الترعة أيضا ؟ .لابد أن لها حمام من الرخام المرمر .. وماء الترعة لاينفع .. ولا ماء الطلمبة » ورد معاطى « فعلا .. من المؤكد انها تستحم باللبن ثم ان الرجال فوق المصـــطبة انكمشـــوا وغاصـــت رقابهم فى أكتافهم وضغطوا بأسنانهم وزاموا جميعـــا زومة قصيرة ثم سكتوا فى خجل .. ثم اندفعت العيون كلهـــا تنظر الى محمود فى حقـــد فابتسم وبدا عليه انه سعيد بحقدهم واذا بعويل يدخل المنـــدرة قادما من حجرة الكرار ، عرفت انه صوت « نجية » أم محمود .. ارتبكنا جميعا ـ وانقلب وجه محمود ونظر الى معاطى مشـــوحا برأسه نحو الداخل . فنهض معاطى واتجه الى حجرة الكرار وأنا وراءه . كانت (نجية) قد مزقت جلبابها الأسود وراحت تلطم خديها وتضرب الأرض بيديها وقدميها وتقول بصوت مبحوح :

ـ عوضى على الله ٠٠ لن تهنــأ به عينى ثانية ٠٠ منها لله البغلة .. منها لله البغلة بئر وانفتح لا يجد من يسده .. أترينها أقسمت لتتخلصن على شبان البلد ؟ ٠٠ هل انتهت من شبان البلد واندارت علينا ؟

كانت كالنار المشتعلة لـكن معاطى فى بعض الأوقات يكون أطول بالا منى وأحسن فى التفـاهم مع أن حفنـــاوى ابن الغربة المشهود له بالكلام الحكيم ٠٠ وقف ينظـر الى الوليـــة ويبتسم وانتظـر حتى أفرغت الولية كل ما فى جوفها من بكاء وأســـندت صدغها على كفها وهنا اقترب منها وقال باسـما :

ـ نعرف أن أبا حنفى سيد الجدعان ٠٠ لســنا محتاجين لهذه الفضيحة لكى نعرف .. على مهلك .. على مهلك ..

ابتسمت الولية ولم تفلح كفها اليمنى فى مداراة الابتسامة ٠ يا لك من خطير يا معاطى ٠ أنا نفسى كنت أحمل همهــا فكيف استطعت يا معاطى أن تسحب الابتسامة من جوف الصراخ وتكشف عن الفرح فى بطن الألم ٠٠ تمددت الابتسامة حتى ملأت وجهها كله ٠ فقال فى غبطة :

ـ نعم .. ابتسـمى يا نجية .. فمن منـــا قدك اليــوم ! هنيئا لك ٠٠ من غد سوف تركبوننا وتطوحوا أرجلكم ٠

أدارت وجهها لتخفى سعادتها بل انها أقفلت حنكها بيدها لتمنع الضحك وقال معاطى وهو يدفعها بأطراف أصابعه :

ـ أقولك يا خالة نجية ٠٠ هــل ستقبلين وســاطتى ؟ ٠٠ حين يبعثنى واحد من ـ البلد يريد أن يشتغل او حين تحتــاج البلد الى ماسورة تركبها فوق المصرف هل ستقبلين وساطتى ؟ ٠ طبعا لابد ..

احمر وجه نجية وانزرد والضحكة المكتومة تتمرد وتنتفض فى خديها وهى تهز رأسها وتحاول أن تبدو حزينة كما كانت وشقاوة حلوة تتراقص على وجه معاطى ويؤكد لى ان هذا الولد لم يكن طفلا فى يوم ما انه ولد هكذا عجوز الملامح صبى الجسد حكيم القول :

ـ والله يظهر انك لن تجعلى لنا سعرا ٠٠ أنا أعرف ٠٠ ساعتها ستقولين لى من أنت ٠٠ وتجلسين فوق البساط وترسلين لى من يقابلنى ويزحلقنى ٠٠ نعم أنا لست تائها عنكم ٠٠ يا أهل الرحبة ٠٠ لا غالى لكم ٠٠

انفتح حنكها وتساقطت الضحكات وجاء من المندرة صوت كركرة الجوزة مصحوبا برائحة المياه المندلقة نحو شفتى معاطى فامتدت أصابعه وتناولت البوصة وانضمت عليها شفتاه وراح صوت الجوزة يتراقص طربا فى الدار وسحب الدخان الأزرق تتكالب مندفعة لتسبح فى الفراغ بنشوة وحامل الجوزة يتمايل من كثرة الطرب ويطرقع بالماشة فى تنغيم حتى اذا ما زفر « الحجر » نفسه الأخير ضن به معاطى على الهواء واحتجزه فى أنفه وقال لنجية وهو يبتلع الدخان :

ـ أهذه ثياب ترتدينها فى ليلة كهذه ٠٠

أخيرا نطقت بصوت خفيض قالت « لانها سوداء.؟ هذا هو الواجب » قال متجاهلا قصدها « لأنها ممزقة وتكشف عن عريك » نهضت الولية فى الحال متكورة على نفسها وانسلت خارجة وهنا طرقع معاطى بأصبعيه طالبا حجرا وفى الحال تأودت البوصة واستسلمت لشفتيه وراحت الجوزة تطلق أصواتا بهيجة والمندرة كلها تتمايل وتقول : « يا سيدى يا سيدى » ثم تقول لمحمود « تعلم يا أبا حنفى ٠٠ لابد أن تكون هكذا قبل أن تراك السنيورة ٠٠ وبعد حجرين أو ثلاثة دخلت الى حجرة الكرار امرأة غريبة ترتدى

جلبابا من الشيت الملون المزخرف بتصاوير صغيرة لأطفـــال عرايا ذوى أجنحة ثم انها تتعصب بمنديل من الحرير بأوية وفى معصميها تلمع الغوايش الذهب · من تكون هذه اللبؤة التى تجىء وتجلس بجوار معاطى ؟ يا للفظاعة آيها العقلاء فى هذه الدار ان كنتم عقلاء حقا ؟ من منكم يصدق ان هذه اللبؤة التى زوقت نفسها فجأة وباتقان أزال ملامح السنة الخمسين من وجهها هى «نجية» أم محمود ؟ كان ما يدهشنى ان ما حدث يمكن آن يحدث وان الحزن يمكن أن يكون مجرد واجهة لسعادة غامرة وان السعادة يمكن أن نكون فظيعة الى حد يجعلها تتخفى فى أثواب من الحزن المرير وان الواحد يمكن ان يكون سعيدا حزينا فى نفس اللحظة هكذا · لحظتها وقف معاطى خابطا ركبتيه بكفيه كأنه أنهى المهمة قائلا : « اتمسى بالخير يا خالة نجية » ثم تخطى الدهليز الى المندرة فقابله الجميع بالترحاب · أنا حفناوى الذى لطمته الحياة من بحرى الى قبلى والذى استطعت أن أعيش ذات عام فى بلدى هذه وفى دارنا وبين أهلى بشخصية رجل غريب أخنى عليه الدهر كما تقول الروايات ثم رضيت فى آخر المتمة من الحياة بالقليل وعملت خادم ثور فحولت الثور الى رأسمال ·· أنا حفناوى الذى قطع السمكة وذيلها ·· أشهد أننى لا أفهم شيئا أى شى عن سر هذه السنيورة البغلة وكيف يندفع اليها الحزن فى موكب من الفرح العظيم وهذه اللبؤة التى لم أرها فى يوم بهـذه السعادة كنت منذ برهة متأكدا ان قلبها يتمزق وانها حزينة حزنا لا مثيل له : أشهد أيضا ان الجوزة لعبت دورا أثار البهجة فى القعدة وأنساها الكثير وأخذ المساء يزحف والليل يطل علينا من شبابيك المندرة ويختلط وجهه بحديد الشباك وانقطع نفس الجوزة وتكومت فى الركن وبالت على نفسها وتكوم أيضا كثير من الأطفال وصرت أردد « كل سنة وانتم طيبون ·· العقبى للأولاد ·· شرفتم ·· أهلا وسهلا ·· نزوركم فى الأفراح ·· السهرة أخذت حقها وكان

الليل قد انهزم ساعة خروج الناس من المندرة وبقايا الدخان مثل ابيضاض الشعر فوق أذني ٠

لم يعد باقيا في المندرة سوى محمود ومعاطى ٠٠ والعبد لله ٠٠ وقال معاطي وهو يتعثر فى عدة الشاى والقلل :

ــ هيه ٠٠ ماذا تنوى أن تفعل يا ابا حنفى ؟

اعتدل محمود وتحفز « ما الذى تراه انت يا معاطى ؟ » واشعل سيجارة مكن مع انه أصلا لا يشرب السجاير ٠٠ ثم انه استغرق في التفكير وكذلك فعل معــاطى على انه أشعل سيجارة له وراح يتفرج على عود الكبريت وهو يحترق ثم رماه بغيظ قائلا : « ماذا ستفعل لو ان البغلة ضربتك فى محاشمك ؟ » قال محمود بخــوف حقيقي « لا أعــرف » ثم قال بعــد برهة : « هــل ٠٠ ستضربنى بالفعل ؟ » كور معاطى شفتيه ونفخ الدخان «تراك أحسن من من؟» الدماء تندلق في وجه محمود وتسيح ملامحه على بعضها يرتعش صوته « يا معاطى ٠٠ ربما ٠٠ أتمكن من ارضائها شوفوا خبث معاطى » ماذا تفهم نفسك « وشوفوا ربكة محمود لا لا ٠٠ انت تعرف ٠٠ ان اننى ٠٠ » معاطى سلط عينيه فى عين الولد فارتبك أكثر فأكمل معاطى ما أحسست أن محمودا كان يريد قوله « انك عاشق الجنيه ٠٠ هه ٠٠ تريد قول هذا ؟ » محمود مثل الواقع فى بئر خفت عليه من الخجل الذى طفح على وجهه وجاءنى احســاس باللذة اذ أتركه يرينى قدرته على التصرف « دعك من حكاية الجنيه هذه ٠٠ انما ٠٠ انما ٠٠ على كل حال لا يهم ٠٠ هب ان النــاس تقول هذا ٠٠ ألسنة الناس أقلام الحق كما يقول الشيخ جمعة » ٠ وأعجبتنى الولد تربيتى ٠ لكن ان معاطى آه من معاطى الملعون خبط رأسه في الحائط عدة خبطات وقال « ألم ندفنه سويا » نهض محمود « اسمع يا معاطى انك ٠٠ لا تنكر اننى ٠٠ » وهز ذراعيه كمن يقول « اننى رجل فحل » ٠ على ان معاطى ميل رأسه بالموافقة فلم

أبلتوح لموافقته ولمحت وزاءها استهاتة كبيرة قال محمود : « هذه امرأة تقلب على صدرها عشرات الفحول من ريف وحضر ٠٠ فلابد أن يكونوا على الأقل ـ قد خفضوا ارتفاع الذهب فى حرائقها » ومرة أخرى أعجبنى الولد ٠ وقال معـاطى « نعم ولكن حرائقها تبتلع الرجال حتى الآن ٠٠ انك ذاهب الى بئر لا ينفعه الا كل فارس صحيح الجسد » قال محمود « مستعد أثبت لك اننى فى التمام ، ضحك معاطى : « اثبت لها هى » وصمت ولم يجد محمود ردا ٠٠ وبعد برهة قال معاطى « رأيى فيك ٠٠ أو حتى رأى فكيهة ـ الله يلعنك يا معاطى ـ أو رأى الجنيه نفسها ـ ملعون ملعون ـ لم يعد له قيمة الآن ٠٠ وعليك أن تتأكد من نفسك جيدا قبل أن تلقى بجسدك فى النار » قال محمود بخيبة أمل « تقصد ألقى بنفسى فى المصرف من الآن ؟ » رد معاطى دون أن يبتسم « لا ٠٠ يمكن أن تأخذ معك الزكيبة المناسبة » وجلس محمود كأنه سلم « تستطيع أن تعلمنى كيف التصرف » وقال معاطى « أستطيع أن أقوم بالعملية نيابة عنك ولو مرة واحدة » وهنا وقف محمود وراح يصفق كفا على كف ويقول فى سخط ليس من الصعب أن تلمح ما وراءه من زهو « ما الحيلة وقد اختارتنى أنا ٠٠ بحق الله ماذا أعجبها فى ٠٠ الدنيا ملآنة بالشبان الأقوياء والوجهاء ٠٠ فلماذا يا رب تفتح عينها على أنا بالذات ؟ » وسار يمصمص بشفتيه ولم أدر ان كان ما رأيته على وجهه سعادة أم رعبا فالحق اننى لم أعد قادرا على تمييز السعادة من الرعب فى هذه المسألة ٠ ومرت برهة ثم تقارب الرأسان والتحما فى همس وهمهمة لمدة طويلة ضايقتنى ٠٠ وصار صوت الهمس يعلو قليلا حتى صار صوتا مسموعا ولكنه ليس مفهوما لى ، خصوصا وانه كانت تتخلله ضحكات صبيانية عالية ٠٠

خرجنا الى الخلاء ضائقين ٠٠ ثوران هائجان وخروف عجوز ما أن تركنا الشارع وصرنا فى قلب الرحبة نفسها حتى برز من

الظلام شبحان أسودان كل منهما يمسك نبوتا طويلا رأيت أحدهما
وهو يقبل من ورائنا متجها الى رأس معاطى وصرخ صبى لا أدرى
كيف كان يختبىء فى الظلام : « خال معاطى · احــذر النبوت
أؤكد أن معاطى كان متوقعا شيئا من هــذا · لقد طير نفســه فى
الهواء وهبط بعيداً رافعاً يده ودوت طلقات الرصاص متواليــة
سريعة انبطح الشبحان فوق الأرض وتناثر النبوتان فى الهـــواء
لا أدرى كيف · وصاح محمود « اعقل يا معاطى ·· معـــاطى »
ولا أدرى كيف صار النبوتان فى يد معـــاطى ، ولا كيف أمطرت
السماء كل هذه الرجال فى لمح البصر كلهم يريدون الهجوم على
معاطى ، أنا صحيح أشتغل عند واحد من الرحبة ويهمنى أن يفتح
له باب السعد ولكنى لا يمكن أن أطيق رزالة الرحبة ولا يرضــينى
أن يضربوا معاطى ويعلم الله أننى خائف خوف الجنون مما ستفعله
الرحبة فى أهالى البلد بعد ذلك على حس محمود فأخذت أعطل زحف
الناس واشنكلهم بصنعة لطافة ·· ثم سمعت صرخات رحبـــوية
تقول : « آه يا دماغى » ثم رأيت معاطى يندفع جريا والجموع وراءه
الى أن صار بعيدا عن الرحبة وفى زمام شارعه · وكنا نجرى كلنا
وتستقبلنا طوائف أهل البلد من كل جهــاته لا ندرى كيف نبتوا
فى الليل كأنهم جميعا كانوا يريدون للرحبة مقتلة من أول النهار
أحلف أن البلد كلها كانت تتدفق من كل ناحية على شارع معاطى
وكلهم مســلحون بالغـــدارات والنبابيت وغطيــان الحلل وحديد
الشبابيك ·· وانحصرت الرحبة كلها بينهم · يارب ــ كيف تحولت
الأجساد التى كانت منذ برهة لا وجود لها الى أرواح شـــيطانية :
نبابيت ترتفع وتهوى وتتقارع تصك الرؤوس وتدب الأقفية والرقاب
رصاص يفرقع ويدوى ويبرق كالرعد صراخ يتزايد ويرتفع ··
أين معاطى ؟ أين محمود ؟ خيل الى أن الغيطان البعيــدة والأشجار
والسواقى وكل شىء فى الكون يزأر ويبكى ويصرخ ويطقطق وتتكسر
ضلوعه وتنهار جدرانه · ياللمصيبة · لم يعد فى الرحبة جدران

ولا مبان فوق الأرض ·· بل أجســاد وجثث وأدمغة وناس تروح وتجيء وتدخل في بعضها ضاربة ممزقة ممرغة وكنت قد وجـدت نفسى واقفا هناك عند نخل كحكاية « مع أننى منذ قليل كنت فى قلب الرحبــة ·· وسألت نفسى : أين كان هــذا القمر فى أول الليل · ولماذا يحجب نفسه فى سعف النخيل كأنه لا علاقة له بهذه الجموع المتطاحنة طلبت من الله أن يطلق سراح القمر على هذا الهول الكبير لنرى النبابيت أن كانت تهبط على عدو أم حبيب ·· ولكن القمر يبدو كالمتجسس ويبدو كأنه مشوى فى فرن من اللهب ·· اللهب ؟ يا للمصيبة ·· انه لهب حقيقى : « حريقة ·· حريقة ·· حريقة يا مسلمين » ·· هكذا سمعت صوتا ولكن ·· من سيطفى هذا الحريق الذى اشتعل فجأة ـ والرجال يتقاتلون بغيظ دفين ·· خيل الى أن القيامة قامت ·· وراحت ألسنة اللهب تتصاعد فى الجو مقبلة من كل ناحية تطقطق وتفرقع ·· وكتل الدخان تزحف كليل يغزو أراضينا وبيوتنا والنبابيت لا تكف عن التطاحن·وأظلمت الدنيا واختفى القمر ·· ولم يعـد واضحا فى الليل القارح سوى صراخ الأطفال ·

الفصـــل الخامس ..

كيف تكلمت الزكيبـة لشـيخ البلد .. ولكنهـا لم تفصـح

والله عال وتقول يا عمدة انك لم تقدر على فض الهوجة ؟ .. اصلك ابن حلال .. تتصورنى أهذر ؟ .. لا ورحمة أبيك وأنا لم أحلف بالمرحوم باطلا .. نعم .. الله يرحمه كان يرينا نور نجوم الظهر ويسقينا المر ومع ذلك .. لم يجد من يكرهه كان سـكرة يا حضرة العمدة وأنت مثله بالضبط الخالق الناطق مثله لا تجد من يكرهك .. نعمة من الله طب يا أخى كنت .. ابعث لى بأى كلب من كلابك الكثيرة قل له اجر هوهو لك هوهوتين أمام بيت الحمار اللى اسمه شيخ البلد صحيح ان بيتى خارج البلد وفى وسـط الحقول ولكن فركة كعب توصل القادم الى . أنا صحيح حمار كما قلت لك ولكن حموريتى عندها بعض الفهم وكنت سأعرف انك متورط فى مسألة .. ما علينا حدث خير .. لا تحرق دمك . أيه يعنى . مات خمسون وانجرح مائة ؟ .. فى داهية .. فداءك .. خمسون كلبا ومائة جحش والبلد لم تفرغ بعـد واطلب تجد انهدمت

الرحبة ؟ ٠٠ مصلحة ٠٠ كان حلما والحمد لله أن تحقق ٠ أكل الحريق ثلاث أرباع البلد ومن بينها دوارك ؟ ٠٠ بسيطة ٠ وعدل من الله أيضا البلد هدمت الرحبة والرحبة أحرقت البلد فما خسر العادلون شيئا ثم ان الله كان رحيما بك اكتفى بحرق الدوار دون الدار ٠٠ لا عليك لا عليك ٠٠ قم اغسل وجهك وعفر هذه السيجارة و ٠٠ هل أخذت مزاج العصارى أم لا ؟ ٠٠ خـــذه ولا يهمك ملعـون أبا الدنيا ٠٠ معك المزاج أم لا ؟ أبعث لأشتريه لك ؟ ٠٠ الجيب واحد يا عمدة ٠٠ قل لى : ساعة أن جاءك الخبر بأن جمعا من كلاب الرحبة تنبح طول الليل وتعوى ألم يقل الخبر مع من كانت تنبح كلاب الرحبة ؟

أعرف أن كلاب الرحبة لا تكف عن النباح ٠٠ نعم كلاب أولاد كلاب لا تكف عن النباح فماذا نفعلها لها ٠٠ ؟ ٠٠ خلاص ملعون أباهم ٠٠ عفر عفر ٠٠ يا شيخ ٠٠ لكن حين جاءك الخبر ألم يفكر في المجيء مرة ثانية ليبلغك٠٠ان الكلاب صارت تتقاتل وتبقر بطون بشر ؟ ٠٠ هو الخبر الملعون لابد جاءك مرة واحدة فقط ٠٠ أظنك نمت بعدها لو كنت مكانك لنمت ٠٠ طبعا ٠٠ خبر يقول ان الكلاب تنبح مالى أنا فلتنبح خصـــوصا وأنها لم تكن فى يوم من الأيام الا نابحة ٠٠ أما الحرائق والصوات وما شاكل ذلك من هذه الدوشة فهى فى النوم تصير حلما غاية ما فيه انه مزعج أما أن أراه رؤية العين فهذا شيء أجارك الله ٠٠ الحمد لله ولطف على كل حال ٠ لا تأكل نفسك ٠٠ عفر عفر ٠٠ تقول ان « محمود بن قنديل » مات هو الآخر ؟ ٠٠ يا للكارثة ٠٠ وماذا ستفعل مع التفتيش ؟ ٠٠

لكن ، مصلحة ٠ أنت لا شك ٠٠ استنفعت بقرشـــين من المرحوم جزاء خدمتك له ، وقد مات ٠ لعل السماء تريد ذلك لكى تستنفع لك بقرشين من واحد آخر ، وبهذا تبنى الدوار ويكون الله قد أخذ منك باليمين وأعطاك باليسار فما خسرنا شيئا وان كنـــا

نعلمنا أن الكلاب حين تنبح بهذا الشكل فلابد من فضها بالقوة .
كل ما هنالك أن التفتيش لن يحاسبك على الرأس الآخر ، الرأس الجديد . ولكن لا ، انك يمكن ألا تقبل ، والظرف فى صفك : والله ياتفتش أنا فى نكبـة من جرائكم .. وقد اخترت راسا وها أنتم ترون ما حدث فما ذنبى ، أن أوافيكم برأس جديد يستلزم اقامة فرح جديد تحضره السنيورة لتعاين ، ثم اقامة فرز لاختيار الأحسن ممن أوصت بهم ، وهذا طبعاً جهد جديد يلزمه أجر جديد .. فى ظنى أنك تستطيع أن تقول هذا وحتما ستكسب .

اسمع ، يمكننا أن ندبر الفرز بسرعة ونختار ولدا نحدده من الآن ونخلص ، وسأشير عليك به . لكن .. آه .. ياللخسارة .. انك تقول أن الولد معاطى مات أيضا ، رحمه الله كان أنسب الولدين .. لا عليك لا عليك .. سندبرها حالا . عفر عفر .. ولكن ماذا سنفعل والدنيا مقلوبة والنيابة لا تكف عن المرواح والمجىء ؟ حقا ماذا نفعل ، لكن لا .. أنا أقول لك : منذ متى كانت النيابة تهتز من أشياء كهذه ؟! ألا تذكر يوم قامت البلد وأحرقت عزبة عجلان ؟ . تحول الحادث الى قضية راحت تدب فى المحكمة سـنوات وسنوات ومات قضاتها الأصائل ومتهموها أيضا وحتى هذه اللحظة لا أحـد يعرف الأم ستنتهى . دعها تأخذ مجراها ومادام التفتيش وراءك والسنيورة أمامك فلا تحمل للدنيا هماً . ألا تستحق من السنيورة خدمة كهذه وأنت ترسل كل فحل وأخيه لتشبع متعتها ؟ . عفر يا رجل وقل للولد يعمل لنا زردة العصارى .

والآن خذ هذه عهدة عليك أن تتصرف فيها . سأقول لك حكايتها . تعرف طبعا أننى أخذت الزكيبة فى عهـدتى وختمت بأصبعى على تعهد بأننى سأتولى دفن الجثة بمعرفتى ولقد جئنـا بالخشبة على شاطىء المصرف وأمرت اللحاد بأن يغسل الجثـة فى سرعة الغسل الشرعى ، ودبرت لها مدفنا مقبرة صـغيرة مات أصحابها من زمن ، و .. أن هـذا كثير وحق الله . بالأمس كنا

حائرين فى دفن واحد فقط واليوم ندفن العشرات بلا أى تعب ! ·
المهم أن اللحاد أخذ يعبث بالجثة · دب يده فى جيب الصديرى أخرج
محفظة كبيرة لا تقل عن محفظة « البورينى » تاجر الأقطان · كانت
منتفخة · لا تنزعج لم يكن بالمحفظة مليم واحد · لم أجد بها سوى
هذه الأشياء · تفضل · هذا خاتم يبدو أنه باسم الفقيد ولكنى لم
أعرف أفك خطه · لعلك تعرف أنت · أظنك يا عمدة تعلمت فك
الخط من مدة ، من يوم أن ذهبت لتقابل الملك فؤاد فى كفر الشيخ
وقررت أن تعزمه على الغداء ، أظنك أيضا كتبت له خطابا تخبره فيه
أن عائلتك ذات أصل تركى بعيد لا تتضايق هكذا وعفو · أظنك
أثبت للملك فؤاد أنك أحد أقاربه الذين ظلمهم القدر ، احـــذر
ألا تكون قد أخبرته بهذا والا فأنت تظلم نفسك ظلما فادحا · آنك
لا تفترى عليه ، صحيح أننا نعرف أباك وجدك وربما جد جدك
ولكننا نقتنع أنك بالفعل من أصل تركى عال ، ومن يدرى فلعلك
لو بحثت فى الأمر قليلا بمعاونة الملك فؤاد فربما تكتشف أن البلد
كلها كانت فى الواقع من بين أملاك المرحوم والدك ، أو من موروثات
ذات المقام العالى والدتك · اننى أتكلم الجد ، دائما نشك فى كلامى
هكذا وتعتبره تريقة ؟ دائما تسىء الظن بى يا عمدة ؟ سامحك الله ·
هاتوا الشاى يا أولاد · هاتوه ربما فتح العمدة مخه وعينيه قليلا ·
آه يا عمدة لو أنك أثبت للملك فؤاد جلالة قدرك ، لا تتصور ما الذى
كان يفعله لك فى محنة كهذه · دعك من هذا فأنت أشطر مخلوق
شفته فى حياتى وعيب أن ترتبك هكذا أمام أوراق كهذه · المقصود ·
هذه هى العهدة التى وجدناها بداخل العهدة · وكل عهدة ستجد
بداخلها عهدة أخرى والمســألة باذن الله يمكن ألا تنتهى · أقول
لك ؟ ·· كل « عهدة » ولها حلال ·· هاهاها ·· سى ·· اضحك
يا شيخ وفكها فى عرض النبى ··

هل كان من الواجب أن نكتب محضرا بهذه المحفظة ؟ الأمر
لك على كل حال · قصدى أقول أن محضرا بهذه المحفظة سيجر

علينا الوبال ألوانا ، ولكن الأمر لك مهما كان ، ثم أنها محفظة لاتحوى سـوى بضع أوراق خنفشارية لا هنا ولا هناك .. « يا عم واحنا مالنا سمك ما أكلنا بس اتهمنا » .. صدق من قال هذا المثل ، ووالله انى لابن كلب ، ما الذى أضنى فؤادى وجعلنى أحتفظ بهذه العهدة ؟ . ليتنى دفنت الزكيبة بكامل هيأتها بلا غسل وبلا كفن . نعم كان هذا هو الواجب . ولكن ، المقصود . لقد تعلقت بى العهدة وانتهى الأمر فانظر ماذا ترى . مالك تبحلق فى العهـدة هكذا وتشرد ؟ . تشغلك الأوراق أن خطها مثل روشتة الحكيم لا يستطيع أحد قراءته ، كما وأن بقع الماء تسربت الى جيوب ! المحفظة ولطخت الورق بالحبر ، ولو استطعنا أن نفك سطراً فكيف نستطيع فك البقع السائحة . أنت مهما كان رجل متنور ، والحمد لله أنك سعيت وتعلمت فك الخط والا أصبحت المسائل مضحكة . العمدة وشيخ البـلد لا يعرفان الألف من نبوت الغفير ؟ .. مصيبة .. أقصـد كانت تكون مصيبة .. عفر عفر ولا تحرق فى دمك ..

الخشية أن تجىء النيابة من جديد وتستخرج الجثة لتأخـذ أقوالها . ربما يجيئون باللوم علينا ويقولون لنا كيف لم تأخذوا أقوال الزكيبة ، كل شىء جائز فى هذه الأيام . أنا شخصيا لا ذنب لى ، ها أنا قد جئت بأقوالهـا والأمر لك . لماذا تندهش هكذا يا عمدة ؟ ان هذه الأوراق هى بالحق أقوال الزكيبة ولكنها أقوال خرساء لا تستطيع أن تفهم منها شـيئا . فلنخاطبها بالاشارة لو أردنا ، وهذه مهمة ليست بالصعبة عليك أبدا . المقصود أرى أنك الليلة لا تصلح لشىء ، لقد انغلقت بالضبة والمفتاح ، وخـير ما أفعله أن أدعك الآن . فاليك العهدة ، وسأعود اليك فى الصباح لنتفاهم بشأنها .

الفصـــل السادس ••

سيدنا يضع اللغز••
أمام عريف الكتاب

وحق جلال الله انك عريف على قد حاله • قلت لك يا ولد انك لاتزال صبيا وبينك وبين الفقهنة درجات ودرجات • احذر بعد الآن أن تتمرد على ، وانزع من دماغك مسألة أن تفتح كتـابا لوحـدك وتستقطب الأولاد معك • تريد أن تعرف لماذا طلبني العمدة ليلة أمس؟•الواجب يمنعني من أن أقول لك•ولكني سأقول لسبب واحد فقط هو أن تعرف أن الناس مقامات في هذا البلد • وحد الله • تريد أن تسمع مني الحكاية ؟ صلى على النبي ، ثم زده صلاة ••

دفعني مقصوف الرقبة الذى اسمه شيخ الخفراء أمام العمدة • أقصد قال لى اتفضل يا سيدنا • وجلست ، وكان وجه العمدة مكفهرا وكل عفاريت الدنيا مقعية على كراسي خده الغليظ • قام بنفسه وقال لى بعد أن أغلق الباب • اقرأ لى هذه الأوراق يا سيدنا • « قال جل جلاله » وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » • نعم فوحق الله كنت أكره خط العيال في الألواح وأتعب في تصحيحها ولم أكن أدرى أنني أتعلم منهم فك الخطوط المعقدة المتلوية • ولذلك ما ان أمسكت الورق

حتى نطقت بما فيها بعون الله . ولقد حفظت الكلام عن ظهر قلب اذ أننى كنت أقرأ السطر ألف مرة لكى يفهمه العمدة .

أول ورقة أمسكتها كانت حجـابا . أى والله حجاب مكتـوب بالحبر الأحمر . وبحق جلال الله ان من كتبه أجهل من دابة . تصور يا ولد . قسما عظما ان الذى كتب هذا الحجاب هو الشيخ « بكرى » ذو العمة الخضراء . اننى أعرف طريقة كتابته للأحجبه وأشم نفسه فيها وفى كلامه الغش الملفق من دماغه وليس من الكتب التى وهبنى الله اياها . حتى هذا الحجاب أصر العمدة عـلى أن أقرأه له كلمة كلمة . ابتداء من « يا خدام الجان أحرسوا حامل هذا الحجاب » الى « ولا تجعلوه يموت فى أرض بعيدة » . أضف أن الخدام رفضـوا أن يسمعوا كلام الشيخ بكرى ــ ومنذ متى سمعوا كلامه ؟ . بل انهم عاندوه وجعلوا حامل الحجاب يموت فى الأرض البعيدة . قلت هذا للعمدة فصـدقنى وانبسط من كلامي أيما انبساط . ثم أمسكت بالورقة الثانية . كانت ذائبة وملطخة بالحبر ولم نفهم منها شيئا . كذلك بقية الأوراق ، كل ورقه لم يكن يتضح فيها سوى ــ سطر أو سطرين ، وكل ما نفهمه منها بضع كلمات تبين ان هذه الورقة كانت عقد بيع أما تلك فكمبياله له أو ما أشبه ، وهناك ورقة لم يبق منها سوى كلمات بالمطبعة عرفنا أنها شهادة معافاة من العسكرية . وقد جمعها العمدة كلها ومزقها وألقى بها فى النار . و ..

تدفع كم وأنا أريك سرا يساوى رقبتك ؟ . ولكن لا . انك ولد ثرثار لا يكتم السر . وعلى كل حال . كما يخيل الى ــ فأنت لا شك تحفظ العشرة مهما كان ، ولابد أنك تحافظ على سمعة سيدك الذى علمك القراءة والكتابة ونقش على صدرك القرآن فأصبحت شيخا عليه القيمة حتى أنك تفكر فى فتح كتاب لوحدك . انظر الى هـذه الورقة . فى حياتى لم أر ورقا بهذه الفخفخة . أتعرف لماذا أخفيتها فى عبى ؟ . لسبب واحد فقط ، لقد استخسرتها وأخفيتها حتى لا

يمزقها العمدة ويلقى بها فى النار ، وقلت فى بالى أن تذكرها أقف على حيلى وأنفض نفسى فتقع وأكون قد أعفيت من مهمة السرقة ، ولكن العمدة كان مدووشا فلم يسأل عن شىء . هذه الأوراق كانت ملفوفة فى جواب من الجلد . فخيل الى أنها أموال ولكن تبين أنها مكاتيب . مع ذلك فالمياه نفذت اليها ولطخت بالحبر صفحاتها . تعال نقرأها سويا ..

.. (سطور سائحة ياولد ، لن نتمكن من قراءتها . أول القصيدة كفر دائما ؟ . المهم) اننا نطلب من سعادتكم (بقعــة سائحة) . وحضرة جناب المفتش العام افندى يلقى الأمرين بسبب ابنه هذا ، الذى أصبح مثل الفلق ، لكنه يا حضرة كبير النظار مثله مثــل الناف أو المحراث أو عرق الخشب ، لا ينطق ولا يتحرك ولا يضحك ولا يبكى انما يصرخ فقط اذا أعوزته الحاجة . عيون تبرق وجسد قعيد يخرأ على نفسه ويلزمه من يتكفل به ويسهر على راحته ليل نهار . والنائم .. (بقعة سائحة) .. ومنذ صغره والتفتيش كله ينعى همه ويشفق على حضرة جناب المفتش العام أفندم . ولما كان جنابه لابد وأن يتفرغ لشغل الوسيه وهو عبء ينوء به كاهل جنابه فقد ارتأى التفتيش أن يخصص لطلعت بك ــ ابن حضرة جناب المفتش العام أفندم ــ نفرا مقيما ، يقدم له الأكل دائما ويمسح له الخراء عدم المؤاخذة ، ويغسل له الثياب وينظف الفرش . والتفتيش ياحضرة كبير النظار يفد اليه مالم تكن تعرفه من الأجناس والأصناف والألوان ، ولكنهم جميعا « غرابوة » أولاد كلب حقراء فى غاية اللؤم والمكر ويخشى منهم على سعادة البك حاولنا أن نبقى منهم واحدا ولكن البك صار أشــبه بالوحش الشرش . يصرخ ويزأر وينسف كل الأشياء التى تصادفه نسفا . واعلم يا حضرة كبير النظار أن هناك كثيرا من الأشياء يمكن لحضرة جناب المفتش العام افندم أن يضحى بها

من أجل عيون طلعت بك ، فليعش الولد وينسف • انما المصيبة أن الكتير من هذه الأشياء نسقها تحوطه المخاطر ، قد ينجرح وجه أو تنكسر يد أو تنقلع عين أو تزهق روح عنـــدما يستبد الغضـــب بطلعت بك• والحق كل الحق أن البك لم يكن يغضب ويلجأ الى الصراخ والجعير والنسف الا بسبب الخدم «الغرابوة» • وكان لابد للبهائم (سطور كثيرة ملطخة بالحبر) •• والحق كل الحق أن هذا ماقد حدث• أي جمال وأي فتوة•لكنهم جميعا مصابون بلوثة (سطور سائحة)•• كلفت أنا باستلامه ومراقبته • كان ولدا فارغا بحق ، يلبس جلبابا من الكشمير ويتلفح بشال من الحرير وفي قدميه بلغة صفراء • من باب الخدم أدخلته • وفي حجرة الخدم أجلسته وقعدت قبالته وقصدي أن آخذ وأعطي معه في الكلام • وبعد برهة رأيت القلق على وجهه ورأيته لا يجلس على بعضه ، فأخذت أدقق في ملاحظته • كان ينظر حواليه كما اللص وقد ظننته بالفعل لصا ، وكلما سمع صوتا في الحرملك نهض واقفا فيما يشبه الخشوع ، وتلفت حواليه كأنه يبحث عن أصداء الصوت ثم تركبه حالة غريبـــة لا أدري ان كان فرحا أم فزعا ، فوجهه يتغير ويصير مثل وجه الطفل حين يسمع صوت أمه بعد غياب طويل ، فاذا تكرر الصوت في الحرملك زام وارتعش، وكور رقبته مشددا عروقه • قلت له : مالك يا جدع • فلم يجب ، انما نظر الى في غير اهتمام كأنه لم يسمعني ، وفي عينيه ضحكة جذلة لا تريد أن تنتقل الى شفتيه وتخلصني • قلت له : أتعرف عملك الذي جئت من أجله ؟ • فوقف وأجاب صائحا • نعم أعرفه • قلت له : هل أنت موافق عليه ؟ قال وقد أحسست أنه يتكلم من أعماق قلبه : انني أحبه ورقبتي فداء له • فعرفت أنه يتكلم عن الولد ــ أقصد البك الصغير • وأمرته أن يتبعني • وفي حجرة البك الصغير أوقفته بجانبي بحلق فينا طلعت بعينين لا تقصدان شيئا أي شيء • قلت له الأشجع صاحبنا « ازيك يا طلعت بك » • فهمهم كعادته بشيء غير مفهوم • وخفت أن تتحول الهمهمة الى صياح

وصراخ فجلست بجانبه ورحت أربت على كتفه بحنان وأنا أقول لصاحبنا «انظر ، تعلم ، هكذا يجب أن تعامل البك»٠على أن صاحبنا لم ينطق بشيء ، ورأيته يشجب ويبدو أنه كبر خمسين عاما دفعة واحدة ، فاقتربت منه ٠ وقلت له : « هيـــا أرنى كيف تغير له ثيـــابه » ــ وكأننى أكلم حمـــارا أو جدارا ، فنقرت بأصبعى على صدره وقلت : « هوه ٠٠ أنت يا هذا » ٠ فاندفعت من عينيه نظرة تقطر شررا ونارا ٠ ثم كأن اللهب أحرق عينيه فاحمرتا وانطفأ بريقهما تماما ٠ ومال برأسه فوق صدره ٠ فى تلك اللحظة تململ الولد ــ أقصد البك ، وضرط بصوت عال وبان من صوت ضراطه أنه فعلها على نفسه ٠ قلت لصاحبنا « الآن ٠٠ أرنى كيف تمسح له وتنظفه ثم تغير له السروال وتغسله » ٠ وأيضـــا لم يتحرك صاحبنا ٠ انما ظل منكسا رأسه مثل فتاة انتزعت بكارتها ٠ زغدته: « أنت يا ثور ٠٠ تحرك » ٠ فاندفع يبكى مثل طفل تاه من أهله وينظر حواليه كأنه يبحث عن أحد يعرفه ٠ قلت له : ما الذى يبكيك يا أخ ٠٠ ان البك الذى ستخدمه لا يخيف ، ثم انه وديع وابن حلال ، ولا يعض أحدا » ٠ ولكنه ظل يبكى صعب على الجدع ٠ قلت فى عقل بالى لابد أنه قد بلغته بعض الأخبار عن حالة الولد ٠٠ أقصـــد البك ، وأردت أن آخذه بالسياسة ٠ عدت به الى حجرة الخدم ٠ كان والعياذ بالله يمشى ذاهلا فاقد الرشد ٠ وكنت أنا أيضا آكاد افقد رشدى ٠ أجلسته ٠ عزمت عليه بسيجارة فلم يرض ، عرضت عليه الأكل والشاى ولكنه ظل يهز رأسه ممانعا ٠ وأخـيرا التقط نفسه وشهق شهقتين أو ثلاث لا أذكر ٠ وقال بصوت متحشرج متقطع : « هى ٠٠ هـ ٠٠ هى فين » ٠٠ قلت وقد دار رأسى : « هى مين ؟ ٠٠ من تلك التى تسأل عنها ؟ » ٠٠ فقال وصوته يهرب منه : « ا ٠٠ أد ٠٠ الست ٠٠ البغلـة نعم ؟ ٠٠ أية بغلة هذه التى يسأل عنها ذاك المأفون ؟ ٠٠ وأدركت أنه لابد ممسوس ، وبدأت أخاف منه بعض الشىء ، على أننى تحفزت لضربه

في مقتل اذا ماركبه الجنون فجأة فى تلك اللحظة كانت بهائم التفتيش عائدة من الحقول · ولما كنا بجوار الاسطبل تقريبا · فان البهائم صارت تمر علينا واحدة وراء الأخرى وتتوقف فاشخة رجليها ويشر منها الماء فى بحيرة صغيرة · وجاءت بغلة التفتيش الحرون تتقافز وتثير الذعر بين البهائم · وفجأة ، أى والله يا حضرة كبير النظار هذا ما حدث ؟ انطلق صاحبنا يجرى خلفها · ولعلها فزعت منه فازدادت هياجا وصارت تضرب الهواء بقدميها · الا أنه فيما يشبه دربة الفرسان هجم عليها واعتقلها بين يديه وصار يحننها بأصوات وحركات غريبة حتى استسلمت له المديوبة فانقادت وراءه فأدخلها الاسطبل وسط دهشة الحمارين وخدم البهائم من أنفار التفتيش · لم تكن دهشتهم تقل عن دهشتى وأنا أدخل الاسطبل ضائعا وسط عشرات البهائم والخدم · فى سرعة كان صاحبنا قد أوقف البغلة أمام مدودها وقيدها فى الوتد وراح يتحسس ظهرها بيديه كما يتحسس الواحد منا أعز مخلوق لديه · وكان ينظر فى الهواء نظرة زائغة حائرة متلصصة ·· ووالله يا حضرة كبير النظار لقد وقفت ذاهلا من ذلك الممسوس ، وأمرت خدم البهائم أن يشوفوا شغلهم ولا يلقوا اليه بالا · وصممت ألا أفعل شيئا معه حتى يرينى هو ما الذى يريد أن يفعله ·

انتهى خدم البهائم من التتريب وخلط التبن بالفول وانصرفوا واحدا وراء الآخر وظل صاحبنا كما هو : تقول التصق بالبغلة ولا يريد أن ينسلخ منها ؟ قلت له بهدوء :

ـ ماذا ·· أتظل واقفا هكذا الى مالا نهاية ؟ ·

فلم ينطق ، وازدادت نظرته حيرة وتلصصا · اقتربت منه قليلا · فتراجع ملتصقا بالبغلة أكثر وأكثر · أشرت له نحـــو باب الاسطبل قائلا :

·· هيا ·· أخرج أمامى ·

فركبه شيء كالذعر ، وانحنى على ظهر البغـــلة واحتضنها صائحا ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ انها هى ٠٠ هى ٠٠ لقد جئت اليها ٠ لا أريد سواها ٠٠٠

امتدت يدى وراحت تربت على ظهره فى اشفاق ٠ فلقد تيقنت من عدم سلامة عقله ، على أنه طوق عنق البغلة وراح يدفن رأسه فى شعرها ويصرخ صراخا لا أستطيع وصف ما فيه من ألم ٠٠٠ ويقـول :

ـ اننى أريدها ٠٠ أريدها هى ٠٠ فى عرضكم ٠٠ دعـــونى لها ٠٠ اننى أحبها ٠٠ لا أحد يحبها مثلى ٠٠ سوف أجعلها ترضى عنى سوف أريحها ٠٠

شددته من ذراعه بقسوة ودفعته نحو الباب فانكفأ على وجهه ونهض صارخا يريد الرجوع اليها ، على أننى لويت ذراعه وراء ظهره ودفعته أمامى الى حجرة الخدم وألقيت به فيها وذهبت الى حضرة جناب المفتش العام أفندم ، ونقلت اليه ما حدث وأنا أتصبب عرقا فاذا به يضحك ، واذا بالست هانم تأمر أن نتركه فى حاله بضعة أيام فربما يثوب الى رشده ٠ وتوصلت الى الطريقة المثلى لاخضاعه ٠ فحرمتـــه من الأكل والشرب أياما بكاملها ٠ الى أن طلب الأكل بنفسه ، فاسطحبته الى حجرة الولد ٠ أقصد البك ـ ووضعت له الأكل فيها وأمرته أن يشارك البك فى الأكل ٠ ولما كان البـك فى حاجة دائمة الى من يضع له الأكل فى فمه فقد أمرت صاحبنا أن يفعل ذلك ٠٠ وبدأ فى الأول خائفا ولكن شيئا فشيئا بدأ يعتاد الأمر ٠ ومضى وقت طويل ٠ وارتخى شارب صاحبنا وتدلت أذنيه وصار يعدل طوقه باستمرار ويتحسس رقبته وقفاه ولا يفتح فمه٠ وذات يوم قدر له أن يرى الست هانم تهبط سلم السراية عارية

الأكتاف والساقين ، فتسمر في مكانه واندفع يضحك في جذل وبدنه يقشعر • وظل بضره معلقا بها الى أن توارت بين أشـجار الحديقة •• ثم ركبه الجنون • وصار يهرول هنا وهناك ويقول : « هي •• هي التي جئت من أجلها •• أنا أريدها •• دعوني لها » •• ثم راح يبكي ويدبدب رجليه في الارض • ويجرى ، ويقرع رأسه في جذوع الأشجار ، ويجعر • ثم فجأة أطلق صرخة مرعبة ، واندفع كالسهم يجرى ويتعثر ويجرى ويقفز حتى خرج من باب السور وامتلك الخلاء ، ونحن ـ أنا والجناينية ـ في أثره فاذا بالبغلة منطلقة تجرى في حالة هياج ، واذا به يطاردها • وعجبا كيف كان يلاحق سرعتها الجنونية ، وكيف تمكن من الامساك بذيلهـا والتشبث به والاستماتة عليه • فظلت تنفضه في الارض وتجرى وتضرب بقدميها الخلفيتين الى أن تركته جثة تتبعثر دما •• و •• (بقية الصفحة سائحة وملطخة بالحبر) ••

•• قل لى بالله عليك يا ولد • ما معنى هذا • أسميك جدعا لو قلت لى من الذى وضع هذا المكتوب فى محفظة الزكيبة ؟ ولماذا وضعت وما علاقة ما فيه بالجثة ؟ • اذا عرفت هذا يحق لك أن تستقل بنفسك وتفتح كتابا لوحدك • أرأيت ؟ ها أنت لا تعرف • أنا نفسى لا أعرف شيئا من هذا اللغز • قسما بجلال الله أنه مثل لغز الحياة والموت • يبدو فى غاية الوضوح ولكنه في الواقع شيء أكبر من قدرتنا على الفهم • والا فقل لى ان كنت فالحا : كيف تقودك الحياة الى الموت ، وكيف تلتقى الحيـــاة بالموت فى خطوة واحدة ؟ وكيف ينكشف سر ليخفى أسرارا ؟!

خاتمـــة

وسيلة تغنى :

قالت جدتى : ازرعى في قلبك عودا من الصبر ٠٠ وفى كل خطوة خطوتها زرعت الصبر فيها ٠٠ وغيطان البلد كلها لم تعد تطرح الا زهو الصبر وأمى٠٠آه يا أماه٠٠جاءك الهم أشكالا وألوانا٠٠ وأقعدك الكساح على عتبة الدار ٠٠ هل أواسيك فى أخى مختار الذى دهسته الأقدام فى الليلة المجنونة ٠٠ ؟ أم أواسيك فى خالى معاطى ؟ أم أواسيك فى فراغ الدار من الرغيف ؟ أم فى الخيبة التى حلت بأبى ؟ أم أواسى البلدة كلها فى الخيبة التى حلت بها ؟ لماذا يا رب كتبت علينا أن نكون أنفارا٠٠بالله ما هذا الذى يحدث ؟٠٠ لا أحد يقيم حسابا للحزن المتربع فى قلوب الأنفار ٠٠ يارب ٠٠ الأنفار أنفسهم لا يقيمون لحزنهم حسابا ٠٠ كلهم عرايا ـ يقرفون من أنفاس بعضهم قرفهم من رائحة الجوع ٠٠ فكيف يهرعون هكذا لمقابلة السنيورة من جديد ؟٠٠كيف تصدق آذانهم هذه الطبول ؟٠٠ أمن الفرح يرقصون هكذا أم من الألم ؟ ٠٠ لا ليس هذا أبى ؟ ولن أصدق بعد اليوم أنه أبى ٠٠ ومن هذا الذى يراقصـــه ؟ عريف الكتاب ؟ يا عيب الشوم حتى هو ٠٠ ؟ آه يا دماغى ألفك بألف طرحة سوداء لا بواحدة حتى تثبت فى مكانك ومن هذا الذى يجىء

من بعيد يشق الجموع ويهرول ليقف هكذا وسط الدائرة انظرن أيتها البنات التعيسات مثلى .. هذا هو سيدنا فقيه الكتاب لعله يريد هو الآخر أن يرقص .. ما هذا الذى يفعله ؟ .. انه يصرخ فى الناس أن تهدأ وفى الطبول أن تكف قليلا . لقد أخرج من جيبه ورقا ها هو ذا يقرأ . أترينه يخطب خطبة الجمعة ؟ .. لكن لا .. أنه يقول كلاما غريبا .. ويشـــوح الورق فى يده أترين يا بنات ؟ . هجم بعض الرجال على سيدنا .. اختطف منـــه الأوراق مزقوها .. أخرجوه من الدائرة ارتفعت الطبول .. آه .. قلن معى يا بنات على وقع هذه الطبول العالية .. البيين عملنى جمل واندار عمل جمال .. لوى خزامى وشيلنى تقيل لحمال .

(صيف ١٩٧٤)

موال فى الزمان القديم

- ١ -

فى صبيحة يوم قائظ جاء الرجل الى البلد ٠ هبطوا على أرض لنخيل

راحوا يقيسون الارض ويزعقون ويشخطون ٠ جاءت لهم حارسه النخيل وأطلقت فى الفضاء جعيرها ٠ قال « المهندز » وهو يقبل نحوها :

ـ اهدئى يا ست

شوحت فى وجهه دون أن تخشاه :

ـ من انتم وماذا تفعلون فى أرض الخواجه ؟

قال « المهندز » :

نحن رجال الخاصة الخديوية .. رجال أفندينا .. طبعا نعرفينه يا خاله .

زعقت بصوتها المشروخ :

ـ وما شأنكم بالارض ؟

صاح « المهندز » ضائقا :

ـ ليس شأنك ياوليه .

واستدار وراح يعمل . هى الاخرى استدارت . وبعد حين أقبلت ، تجر غراره ملأنه بحجارة . قلبتها على الارض كوما هائلا، وصارت تقذف الجميع ، وصار الرجال يتقازفون ويصيحون ، وقطع الحجارة تلاحقهم على الطريق مثل صبيان أشقياء . وقال العمدة المسكين يا رجال الخاصة الخديوية لا تورطونى مع الخواجة . أنا لست قد الخواجة ولا انتم . أرض النخيل أمامكم وقد عرفتم من قبل أن تحضروا أنها ملك له .. فافعلوا ما تشاءون ولكنى لن أعاونكم على شيء . أما حارسة النخيل فأنى لست قادرا على تأديبها فهى كما تصلحون .. « حماية » .

عادوا بعد أيام وحطوا فوق أرض البائس المسكين «عبد السلام الشوربجى » . بضع قراريط كان يفلحها ويأكل العيال من ورائها الخبز واللفت والحمد لك . ليس للمسكين من ذنب سوى أن قراريطه فى مواجهة النخيل . يومها صوتت زوجته وبكت أما هو، فلم يصرخ ولم يبك . انما تمدد فوق حافة الزراق وصار والأرض شيئا واحدا ، وحين رفعوه عنها كان يقطر طميا وطينا وماء ووريقات خضراء .. ثم ألقوه فى داره كومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع ، يقضى النهار متقرفصا ينشد الحياة ومن فمه تتساقط قطرات من الأنين المكتوم . وجاء حلاق الصحه وانصرف . وجاء اهل الله من أصحاب

الكرامات . حتى القابلة هى الأخرى جاءت وأدلت بالنصيحة وكأنه انقلب أنثى تحيض .

– ٢ –

دخل العمدة ذات يوم كئيب وقال بسم الله يا أهل الدار .. ثم مشى نحو القاعة الجوانيه . لكنه ســـمع من خــلفه مواء خافتا استطاع أن يميز فيه كلمة ياعمدة ، ثم شرفت ياعمدة . نظر حواليه فرأى فوق مصــطبة الدهليز جوالا مقعيا محــدودب القامة تبرق فى رأسه عينان ، كخرزتين تسبحان فى بحيرة من الصدأ ، وفيها سواد الفحم المحترق . انحنى عليه العمدة وقال : شــد حيلك يا عبد السلام . الأرض يا ولدى تساوى حياتنا ولكن ما باليد حيلة الله يعوض عليك فلا تقتل نفسك وتقابل الله كافرا . أتبكى يارجل؟ هذا عيب . أنا لم أعرف انك هكذا مثل النسوان ..

وكان لا بد لعبد السلام ان يبكى فالعمده لا يجيىء لخير ابدا .. ويبدو ان العمدة قد احس بما يدور فى رأس الجوال المقعى على المصطبة يرعشه البكاء بلا صوت ، فتحسس جيبه وقال مبتسما : ابسط يا عم فقد جئتك بالبشرى . وهنا انتصبت قامة الجوال . وقال العمدة وهو يخرج حافظة نقوده ويسحب من داخــلها ورق البنكنوت الاخضر ويطوحها فى وجه الوجه الشاحب : تعطفت عليك سماحة افندينا وبعثنى لك بثمن أرضــك ، عشرة جنيهات بالتمام والكمال . انكمشت قامة الجوال وخرج منها صوت ولا صوت له : ربنا يجبر خاطره . وبقيت يد العمده معلقة فى الهواء حتى تضــايق . غرس نظرته الحامية فى جسد الجوال وقال لا يعجبك المبلغ طبعا .. كلام بينى وبينك يا ابا عبده لا تؤاخذنى .. أرضك كانت عجفاء

مثل امرأة لا يزين صـــدرها نديان .. أنسيت أنك من عبطك اخترتها على واجهه ؟ أنسيت أن جيرتها للطريق جعلت الطريق يجور عليها ويحتويها ويرملها ويفسد تربتها ، كما وأن مواجهتها للنخيل حجبت الشمس عنها والهواء ؟ .. أنسيت انك ضيعت فيها شبابك ومع ذلك لم تغنك عن الشغل أجيرا فى أرض الوسية ؟ .. احمد الله على انه خلصك منها ..

تجمد الجـــوال وقال العمدة بعد برهة : « وعلى فكرة .. افندينا ســـيجعلك بوابا للقصر .. الا تعرف ؟ .. ان افندينا سيبني فوق أرضك قصرا اسمه قصر الخاصة الخديوية .. وأنت .. ستكون بوابا له . وجه الجوال مثل بيضـــة انفقشت وسال صفارها فوق زلطه كبيرة . قال العمده وهو يلوى شفتيه : « النعمة ثقيلة على بنى آدم ووجه الفقر يرفسها » . انفصلت عن الجوال زلطه مستديرة ناشفة الدماغ مغمضة العينين وصـــارت تتطوح وتهتز وتقول : شفت يا عمده .. لن يرضينى ثمنا لارضى سوى ان تعود ارضى .. أما كونها بور وقد ضيعت فيها شبابى فهذا يجعلنى احزن عليها ولا افرط فيها بأى مقابل . والعمده لم يشأ الاستماع الى بقية الكلام . فشوح فى وجه الجوال ونهض واقفا ينفض عباءته ، ثم رمى ورق البنكنوت على المصطبة وقال فى غضب: هذه فلوسك انت حر فيها .. أنا مخطىء لانى اعتبرتك وجئت لحد عندك .. ثم خرج يبرطم . خرج العمدة يا عين . وياليل بقيت انت فى الدار دهرا طويلا ، وأمامك يتقرفص الجوال مشتاقا لنور الخلاء .

- ٣ -

كان افندينا بذاته ينجعص امـــام دوار العمده يبك الدم من وجهه الاجرد ويبدو طربوشه كأنه منحوت مع الوجه من صـــخرة

واحده · فى احدى يديه كرباج وفى الاخرى منشة ، وحوله رجال يمروحون بالمروحة · ومن حين الى حين يرفع احدى اليتيه ويضرط بصوت عال فيحترق الهواء والعمده يلوى انفه ويشمئز ويعتدل فى الحال ويعتذر عن وجود هـذه البركة القذرة التى خلف داره · وأهل البلدة واقفون جميعهم لا يجرؤون على الاقتراب ، كما أعواد الحطب بعد تجريدها من النوار · وصاح العمده : « يا أهل البلد · هذا افندينا » · فلم ينطق احد · فصاح ثانية بصـــوت أعلى : « وقد تعطفت سماحته باعفائكم من الاتاوة هذا العام ·· وســوف يبلغ الكاشف بهذا حتى لا يتعب قلوبكم بالمطالبة · هبت على اعواد الحطب ريح أحدثت بها خرخشة وصاح العمدة معلنا : كلكم مدينون للخواجة « جلانتى أبناء عم وشركاه » ·· وهو يهددكم بنزع ملكيتكم عما قريب ·· وافندينا سوف يخلصكم من الخواجـة الى الابد ·· وغدا يصبح النخيل نخيلكم ولا أحد يهددكم فى أرزاقكم · صفرت الريح بين الأعواد وضرط أفندينا واحترق الهواء وصاح العمدة · « ان أفندينا سيبنى لكم هنا قصرا اسمه قصر الخاصة سوف يمدكم بالبذور وبالسلف ويوفر لكم المياه أيضا وسيوفر لكم كل ماتطلبون دون ان تحملوا هم الســداد ·· فأفندينا ليس كالخواجة انما هو موحد بالله مثلكم ويخافه ويخشى عذاب يوم القيامة ·· وسيكون لكم الاب الرحيم وسوف تستظلون بقصر الخاصة فما رأيكم فى هـذا الكلام » ؟ بقيت فى مكانها الاعواد صامتة لاتعرف الرأى فليس لها فى الكلام وقال العمدة : « افندينا لا يطلب منكم شيئا كبيرا ·· انه يطلب ، فقط ان تعاونوه فى بناء القصر لوجه الله ولاجل النبى »· فى الحال نطقوا فى صوت واحد : اللهم صل عليك يانبى ·

- ٤ -

النـــاس تصحو لتسرح فى الغيطان أو تجلس فوق المصاطب تنتظر من يطلبها للمساعدة لقاء غدوه أو حتى زردة شاى • وفى المساء يخمدهم التعب أو يرمى بهم الزهق فى أحضـــان الغفر - زوجاتهم • والناس فى بلدنا يتشوقون الى الفرح ويشتهون البهجة، ويعرفون أن كل الكوارث تحدث اشـــتهاء للفرح • حتى القمر حين يختنق فى بعض الليالى فالطبل والزغاريد يلفان البلد ولا يسكت لهما دوى حتى تنسحب الدماء الحمراء عن وجه القمر • وهم يعرفون ان من لف حبل المشنقة حول القمر هن بنات الحور لا بد ، ولهذا يغنون لهن قائلين فى ابتهاج حزين : « يلا يا بنات الحور سيبو القمر يدور ويلا يابنات الجنة سيبوا القمر يتهنى » •

فجأة هاصت الدنيا وزاطت وقام فى البلد فرح كبير• امتلأت شوارعها كلها بالأفندية حمر الوجوه يرطنون فى همسهم وزعيقهم وعنـــد تشويحهم • وكثر الغرباء ذوى السحن المحروقة والألسن المعووجة ، والخرق والهلاهيل والمقـاطف والفؤوس والكريكات • جاءت عربات تجرها خيول وتحمل حجرا ورملا وطيناوجيرا وحديدا وخشبا وزلطا ، وعربجية يسبون الدين ويشخرون ويتبولون وقوفا على قارعة الطريق • وأهـل البلد يتطوعون بانزال الحمولات وحفر الارض وتحويل المونة ومساعدة البنائين ، ويضحكون فى فرح ، لكن شـــيئا ما كان يبزغ فى الأعماق فجأة يزغد القلب يهزه يكاد يدميه ففى هذه الهجمة هربت بنات مع الافندية ، واختلت نساء ببعض الرجال مقابل قرش أو هدية أو ربما الاعجاب بالوسامة • وكثرت حوادث الصراخ فى الليل وزهقت الاســـماع من ترديد الشتائم فى العربجية ••

وفى النهاية كل شىء يهون ••

— ٥ —

قامت الجدران وارتفعت وظلت ترتفع حتى لـم يعد احد من الفلاحين يقدر على رؤية أخر الجدران · وكان ذلك يسعد الفلاحين ويجعلهم يفغرون أفواههم كلما نظروا الى هذه الجدران التى أصبحت الشمس تشرق عليها فتحولها الى ظل ينحدف على الأرض ويتمدد فى اعمـــاق البلد وعند الغروب تبدو الجدران كأســوار النحاس المنصهر ·

— ٦ —

الفلك دواريا ·· ولـــدى · وياعين ذوبى على ماقد حدث · فمنذ شهور ياليل كان النخيل أعلى قامة فى البلد·اليوم صار القصر أعلى · لم يعد فى الوجود بلد اسمها « شباس » لا ولم يعد فى العب كله بلدان تسمى باسمائها · فأنت اما من القصر أو من ثالث بلد على يمينه أو من ثانى بلد على يساره · آه منك يا زمن لست فى صف الغلابة أبدا ولابد انه بينك وبينهم ثأر مبيت من قديم الأزل بالله قل يا زمن هــل أنت كافر بالله حتى تفعل بالخلق هذه الافاعيل ؟ ان كنت يا زمن تنسى فلتتذكر ما فعلته فى ابنـــاء آدم الغلبانين الشقيانين بعد انتهائهم من بناء القصر ·

يومها وقف « المهندز» فوق الدرجة العليا ليســـلم الباب الكبير ، وأشار للأنفار من أهل البلد · فتدافعوا نحوه يتساقطون، من الفرح أم من الاعياء لا يدرى « المهندز » ولا هو يريد أن يدرى · قال يا رجال هيا نظفوا هذا الطريـــق بدءا من الترعة حتى مدخل القصر الكبير · فى نهار واحد كان الطريـــق قد استوى ، بالردم والتصلبح ، على جانبيه ارتصت قصارى الزرع وأحواض الورد · وبقى الطريق فى انتظار أن يطب أفندينا ومن معه من علية القوم

المحترمين وقالوا ان القصر أنشىء لاستقبال هذا اليوم . ففى الامر عروس .. وعريس .

- ٧ -

سد الطريق فى وجه كل الفلاحين وخصص للعربات والاحذية وأقدام الخيـل . وتوافد السادة الكبار . وكانت الخيـول تدخل الطريق المعبد تجر عربات تحمل الاسرة والدواليب والترابيزات والكراسي والسجاجيد والألحفة وغير ذلك من المنقولات التى جعلت القصر من الداخل شيئا لا مثيل له . وصـــار خدم القصر وعبيده يحكون للناس عنه ، كما صـــار شيخ المسجد يصف جنة الخلد قائلا للمصلين « كأنها قصر الخاصة بكل ما فيه » .

أسفى عليك يا عبد السلام يا شوربجى . حين نقلتك زوجتك ووضعتك أمام بوابة القصر لكى تكون بوابا له كمـا انفقوا معك . صرخت الجدران لحظتها وهدرت ورددت أدواره العليـا كلها كلمة واحدة : «اكنسوا هذه الوساخة من هنا».وكنسنك أيدى اخوانك من اهالى البلد ثم كنســـوا الارض من آثار اقدامهم .. أين تذهب يا عبد السلام وانت جســـد معبأ فى غراره ؟ لكن الغراره فجأة تنتفض وتتمزق اربا تتناثر فى الهواء . انتصب الجسد واقفا كأبينا آدم لحظة ان تساقطت عن جسده أوراق الشجر . زايلك الهزال وصرت تصرخ فى مواجهة القصر لكن صوتك يعلق بجريد النخيل ويتساقط فى الأرض حواليك فيدفعك نحو القصر فى غضب. يراك النساء فيشهقن ثم يصرخن ثم يستدرن عائدات . ويتمعن فيـك الرجال ويلوون الشفاه ، وصوتك المبحوح يعوى ثم يعوى.اعترضك الخفراء ظلوا يدفعونك يزغدونك يضربونك بالشلاليت وبالدباشك ووقعت ثم وقفت ثم وقعت ثم انطرحت فتركوك جســدا هامدا ، وهرعوا لاستقبال الوفود والمواكب . طرح العمدة عليك عباءته .

وعرضت زوجك سقف دارها لمن يعطيها ثمن الكفن · وكان النهار قد انتصف ·

- ٨ -

فى الظهيرة كان الافندية والبكوات والباشوات ينجعصون أمام القصر وبين خطوط النخيل · يضحكون يقهقهون يصيحون يطرقعون أكف بعضهم بعضا وفى فرح كما الصبيان · دهش الناس لأنهم يعرفون الأفندية خلقوا ليتجهموا فى وجوه الفلاحين ويتسخطون فيهم ويسوطونهم ويضربونهم بالشلاليت ويأخذون محصولهم أو يشترونه منهم برخص التراب ، أما أن يكونوا مهزئين هكذا فذلك ما لم يعرفوه واليوم لا يتصورون انه واقع · الخرفان والعجول التى انتزعت من أهالى البلد وتم ذبحها بمعونتهم تحولت الى أطباق تروح وتجيىء بين أيدى رجال يلبسون أبيض فى ابيض ·· ثم تندلق فى عشرات الكروش نتعاقب على المائده · فى العصر تسنقت الفوانيس والكلوبات هامات النخيل ·· وحضرت وفود جديدة تحفها الزغاريد وطلقات الرصاص ·· تطوعت نساء البلده وبأصواتهن الرائعة علمن نسوان البندر أصول الزغردة · لم يكن لهن ناقه فى الموضـــوع ولا جمل ·· ولكن نسوان بلدتنا مثلهن مثل رجالها تواقات الى الفرح دائما حتى ولو تم فى بيوت غير بيوتهن · كان ركب الزغاريد طويلا وعريضـــا وحافلا هبط من مقدمته رجال يلبسون الحلل الصفراء ويمسكون الطبول والمزامير والدفوف وكان الفلاحون يتقاطرون من كل ناحية ويزحفون نحو الموكب فى حذر وخشية يتهدل الفرح فوق ملامحهم· جعلوا للفرح جسدا بارزا وقذفوا فى قلبه ولدانا تطير لاعبه راقصة مبارزة · غير ان الطبول ما لبثت أن خمدت بارادتها وسحقت كل نبضات البهجة ثم حلق فى سماء الدائرة نغم حرج ثم تشقق جسم الفرح ومن شقوقه طلع الخفراء

بالعصى التى أخذت تنهال بلا رحمة فوق الأجساد الفرحة ، الى أن هرعت الجلاليب مذعورة وتطايرت فى الهواء بلغهم وبراطينسهم وضحكاتهم المكسوفة البلهاء • صفصف الجو على الطرابيش والعباءات، لكنها جميعا كانت تسبح فى غبار بدا للفلاحين الذين وقفوا بعيدا يتفرجون ، كأنه قفص من الدخان • ثم طلبوا للغداء فهرولوا خلف بعضهم يتسابقون •

– ٩ –

العريس ولد حليوة أما العروس فقالب من الزبد تبارك الخلاق فيما خلق • فى الدور الأرضى جلست فوق الكراسى العالية جلست تتألق وتضوى وتضمخ هواء القرية كلها بعطر فاجر مجنون ، أميرة تجاورها وصيفات بارادتهن خسفن أضواءهن مجاملة لها • وفى الصالة الكبيرة الفخيمة والحجرات كلها نساء من بنات الحور لابد ، وعوالم فرح وآلاتية وصاجات ومزاهر وأكواب الشربات لا تكف عن الدخول والخروج رغم تعفف الحسناوات • العروس ابنة أفندينا • أما العريس فابن أرملة حسناء باعت جسدها للباشوات والجنود الاحتلال فأنجبته ولدا سمهرى القوام ملون العينين يبيع جسده أيضا لنفس الباشوات ونفس الجنود ، ويبيع حسنه الرقيع لأبناء القصور وبنات البيوتات ويأخذ أعينهن ثم قلوبهن ثم ينفق من خزائن آبائهن ، وقد فازت فى السباق خزائن أفندينا من أجلها جاء الفتى يعتلى الابنة والضيعة زوجا وناظرا • أى عزيا عريس وأى فرجه • كل العرسان تزف زفافا واحدا أما أنت فتزف الليلة الى العروس – الضيعة – القصر فما أسعدك ولقد حار المدعوون على أى زفاف يهنئون وكل زفاف يلزمه كلام وفعل وورود ••

- ١٠ -

كل واحد في البلد تمنى أن يرى العريس رؤية العين • ووقف كبير الخدم أمام القصر ينظم الخفراء حول الأسوار ويزأر في الناس قائلا أيها المناكيد ما الذى تريدون رؤيته ؟ ثم يهمس في أذن الخفراء المتلهفين : حتى أنتم تريدون رؤيته ؟ ثم يصير همسه الى ما يشبه الفحيح اللاهث : انه آدمى مثلنا وابن تسعة ولا فرق بينه وبينكم سوى أنه محظوظ دعت له أمه في ليلة قدر وليلة القدر هذه بعيدة عن شواربكم يا أيها المناكيد فأنتم جميعا أولاد نسوان طمست الدنيا الوسخة بصيرتهن وأعماها المش والبصل واللفت عن رؤية كل شيء ولذا فواحدة من أمهاتكم لن ترى ليلة القدر طول حياتها • يكتم الخفراء ضحكاتهم في اكمامهم ويعضون على نواجذهم بينما يتلفتون حواليهم في خوف • ويستدير كبير الخدم يصفق كفا على كف ويقول عشنا وشفنا الناس لا تتلهف على رؤية العروس بل يشغلها رؤية العريس •

- ١١ -

لكن الموال رآه ورأى كل شيء فمن غير الموال يستطيع أن يرى• لقد كان حاضرا وكانت الأرض أيضا حاضرة : امرأة فتية عملاقة ، لكن الحزن واراها في أحد الأركان ولفعها بشاش أسود ولثمها وكمم فمها ، لكنها مع الموال تحدثت ، نشجت في النـاى وزفرت في الأرغول ونهنهت في السلامية ولطمت خدود الدف وتأوهت تحت قوس الرباب • ولقد زحفت أغاني المدينة والبشـارف والطقاطيق فشخلعت الغوازى وأغرقت الجميع في الخمر والنقود • كان العريس يخوض في بحر من اللبن ويقهقه • من يد المهنئين يتناول كئوس الخمر يجرعها في شره مجنون ثم يقهقه • تشيله الأغنيات • من فرط النشوة يتمـايل • ترتمى على صدره الغوازى يحوطنه بالأجسـاد

الرخصة يشعلن فيه نار الهوى المشبوب ومن فرط الهوى يتطاير يكاد يتفتت يتمايل يتساند يتحسس يلتم ويضم يقبل يحضن يتدافع بين الحجرات يفتش عن شيء لم يستمتح به · في كل جدار مراه وفي كل مرآه عشرات الأفراح وفي كل الأفراح لا عريس غيره · الفرح يوغل في الليل والليل يوغل في الفرح والعريس مترع بالنشوة · تعبت الحضور وانهدت الأجساد المتشيطنة وقلت كثافة الجمع وصوت الايقـــاع لا يصـــيبه الوهن · في أسماع الليـــل يدب يطوح جسد عريس الشؤم الغائب عن كل وجود · ولقد عجزت كل الأيدي ـ من فرط البهجة عن تهدئته · انصهرت روح الشيطان بأعماقه · دار ودار وكان يقهقه ، ثم تهاوى فوق الأرض كعود القصب اليابس · اندفع القصر بحاله · أخذ يقلب في الجسد المنطرح ويشهق فزعا : يا حول الله ·

ـ ١٢ ـ

غلقت الأبواب كلها · انخفضت رءوس المناكيد كأنهم الجنان · غطست البلدة كلها في غبار رمادي كئيب · بدا أن الصقيع لن يفارقها الى الأبد ، وسيظل يصبغ نهارها بمسحة ليلية داكنة · ولم يعد أحد يمكث فيها طويلا ، فالكل يبحث عن الشمس في خلاء بعيد ولابد أن عفريت العريس ينفخ في بطن القرية جبالا من الركود والخـوف يملأ الليل بالعفاريت المردة والنداهات و · الطريق التي احتجزها القصر لنفسه لا تزال تستنشق رائحة الأقدام ، وتتشوق الى روث البهائم · والمناكيد يعودون مع الغروب كل يوم من طرق بعيدة وغير سالكة فاذا نظرتهم من بعيد وجدتهم كأنهم بقايا جروح غائرة في جبين المساء · يا أيها المناكيد ماسر ما في أعماقكم من حزن ؟ قالوا: التوق الى الفرح · يا أيها المناكيد ما سر ما في أعماقكم من خوف ؟ قالوا : الموت تحت سنابك الأقدام ·

(مارس ١٩٦٣)

أنشودة الكورس الحزين

في حوارى قرية عابسة ، تنام مستلقية تحت ظلال الصفصاف، وتطمئن كلما نظرت صورتها في قاع النهر · يمر ·· كل يوم ·· ثلاثة صبيان وربابة ·· وينثرن هذه المقاطع ·

المقطع الأول :

بركات ولد غلبان ، جدع مقهوز ·· تنطق عيـونه بالعذاب والألم · جلبابه « الكزمير » قال : يا أهل البلد الولد غلبان ، الولد بردان ، هذا حرام ، هل من كريم ؟ هل من عطوف القلب يستر ذلك الجسد المضام ؟!

فتغافلت عنه العيون · حتى كبار القلب قالوا : مالنا ! أو ليس للمظلوم أم تستره · مع انهم ــ يا ألف حسرة ــ يدركون المسألة · والمهزلة ، ان القلوب صديقة وربيبة للفتى بركات ! ·· ان السؤال يظل يطرح في الحوارى والحقول وعند بئر الساقية ــ ان غاب عنهم ليلة أو بضع يوم :

ــ يعنى ·· لم يبن بركات ·

ــ ألم يظهر هنا بركات ؟

ـ لابد أن اليأس قد أضناه •

ـ أو قل طواه الشوق للأحباب •

ـ تقصد بها الجنية ؟ •• هو لا يبارح حضنها •

ـ أفلا يبارح جفنها ؟!

ـ لم لا تقولوا انه فد جن ؟

ـ ذاك قول صادق •• ذهبت بعقله الجنية •

ـ والله قد رحمته •• رحمته من أمه •

ـ أمه سلبته صوابه •

ـ فارتمى في حضن جنية •

ـ يا للفظاعة يا رفاق •• هل من صخور قد ذاك القلب ؟!

ـ حينما يتزوج الشيطان اما أرملة •• لا تنتظر منها حنانا •

عادَ الفتى بركات ؟! •• أهلا وسهلا يا ولد • من خوفنا ذهبت بنا شتى الظنون قلنا بانك قد ذهبت الى هناك • هيه • ما حال خلق الله تحت الأرض ؟ ما حالها محبوبتك ؟ هل أتاها حديث أمك يا ولد ؟ •• آ •• ه تضحك ؟! • لابد انك لا تريد البـــوح بالسر الدفين ! • نحن نعلم ان كشف السر يعنى قصم ظهرك ! لكننا والله لا نبغى سوى نفعك •• ولتنحسر أستار سرك أو لتبقى مسدلة • لكن بحق الله قل : ما شكل ما تحت هذى الأرض ؟ •• لابد ان أناسها قوم يحبون الحقيقة ! •• لابد ان سنينهم قمر وشمس دائمان ! •• لابد ! •••

•• ضحك الفتى بركات • مشى لف البلد • نثر السلام على المصاطب والمنـــادر والحوارى والدكك •• ثم جرر خلفه البركات

والدعوات وقولة اتفضل ‏·· صافحت فدماه أرض الناحية ‏· بسمت له الفتيات من تحت الزلح ‏· غنى له الصبيان :

ـ « بركات يا بركات ‏· اغطس وقب وهات ‏· انزل لتحت الأرض ‏·· واستحضر البركات ‏· ولأهل فوق الأرض ‏·· استلهم الدعوات‏·· يامن أبوه مات ‏·· وخلف الفدادين‏·· وضاعت الفدادين ‏·· أضاعها الشيطان ‏·· من أجل رمشة عين ‏·· سوداء لون الليل ‏·· والليل فيها نهار ، أحلام شيطان ‏·· أذاب شمعتها ‏·· وفقأ حبنها ‏·· وصار يبعثها ‏·· تبيع الكحل للفتيات ‏·· والعطر والمناديل ‏·· وانت يا بركات ‏·· تهرب لتحت الأرض ‏·· وتغيب فى الأعماق ‏·· تحضنك جنية ‏·· تسقيك حنية ‏·· فترتوى وتعود ، بالخير والبركات ، والحب يا بركات » ‏·

فى موكب الصبيان ينتشى بركات ‏·· وينسى أهل فوق الأرض ‏·· وينسى ذلك الشيطان ‏· وعند بئر الساقية ‏·· يحاط بصبية الحارة ‏·· يحكى لهم حواديت :

ـ « الليل يا أولاد غول قابع فى الدار ‏· بأستاره السوداء يحمى أمنا الغولة وغولة البر يا أولاد ‏·· أنيابها تغوص فى أكتاف أبنائها فجوفها ضرير وقلبها شرير ‏·· فى قبضة الشيطان ! يا ويلها منه ‏·· لو انها خدعته أو حركت ذنبا ‏·· من غير ما يعلم » ‏·

ـ يا لوعة الأبنـاء !

ـ ‏·· أما تدرون يا أولاد ؟

ـ أخبرنا يا بركات ‏·

ـ ستجىء نداهة ‏·· فى ليلة ظلماء ‏·· لتنقذ الغولة ، من قبضة الشيطان وتسلب الغولة ‏·· زوج غيلتها !

ـ وكيف يا بركات ؟

ـ ستغيب بالشيطان : تطرق عليه الباب تدعوه للصحبة .. تربطه فى حبل .. وتلف ظهر الأرض .. تدفنه فى النار ، فى أحضان ، ما لها شطئان !

ـ وبعد يا بركات ؟!

ـ تحرقه فى لمحة ..

ـ بركات .. بركات .. هل يخدع الشيطان ؟

بعث الفتى عينيه للاشىء . وضاعت الكلمات .

ويظل برهة ساكنا مثل الصنم .. وكأنه فقد الحياة الى الأبد .. وتترى حوله النظرات نطوف بوجهه المسلوب . ومجمرة فى يد الشيخ المعمم بالقلوب .. أخذ « تبخر » ذلك الوجه الحبيب .

ويسرى فى دخيلتهم دبيب حلو : فها هو الفتى يودع أهل فوق الأرض .. وبعد برهة سيغيب فى الأعماق !

وبعد هنيهة وقف الفتى . أطلق فى الفضاء الرحب صرخة لوعة .. فارتج سطح الماء فوق البئر .. وانشق فى الحال .. طاويا بركات .

ويرجع موكب الصبيان . يدمدم فى خطوهم صوت الحكاية.. ويغلى فى صدورهم الصغيرة خاطر مبهم .

***

يعود الرجال من الحقول فى المساء يتأبطون حزما من الأسئلة. تسحبهم البهائم الى الدور . تختلس أعوادا من الحزم وتلوكها فى صمت .. والرجال يجترون الخواء والسام وموكب الصبيان يلتوى

وينحنى ويتعرج وينســد ويذوب فى قيعان الدور ٠٠ الاسرة على مصاطب القيعان فى المساء ذبالة عليلة تلفظ من الهباب الأســود أضعاف ما نبعثه من ضوء أليف ٠ وطبق العشاء فى صحن الدار قطع شهية من قلب أمنا الغولة ٠ وقلل من الفخار تنهمر الدموع من شتى مآقيها ٠ دموعها قطرات ماء البئر ٠ زغردى يا قلل ٠٠ املئى صمت الديار طنينا أجوفا ٠ عمرى ليلها الخاوى بشىء أى شىء ٠ الليل صوت الساقية ، نواح النواعير ، تحكى قصة الأبد المطلسم : « طارة » مهــولة تدور فى هدوء قاتل تخرج من الأعماق مفتــوحة الأحداق تبصق على هذا العالم ادفاقا من الأسرار تجيش فى شتى الصــدور ! ٠٠

٠٠ « لكان ماء البئر يابركات يطفى لوعتك ٠٠ ما ان نحتضنك ، حتى تحس بالارتواء ٠ تدوخ أنت لحظتها ٠ تدوخ وتدوخ وتكاد تهوى من شدة الفزع ٠٠ ولا يريحك سوى هذه الأحضان الحنونة ! ٠ انهــا تعيد اليك صوابك ٠ ها أنت ، بالرغم من انك قد أفقت وانزاح عنك ذلك الكابوس الثقيل ٠٠ تحس انك لا تود الانسلاخ من هذا الكيان الرطيب ٠ آه ما أحلاه ٠ خذ لك غطسا آخر ٠٠ وآخر ٠٠ وآخر ٠٠ ابق تحت الماء أبدا ٠٠ ما أحلى التنفس من خلال الموج ٠٠ كتل الماء تفتح خياشيمك وتبعث فى جسدك الحياة ٠٠ ألا تدرى ما السر فى ذلك يا ولد ؟! بالطبع لا تدرى ٠ كل ما تدريه ، انك ساعة قذفت نفسك فى هذا الخضم كنت لا تبغى الى الوجود عودة ٠ خلعت ثوب الحياة واندفعت فى جوف البئر عاريا منها ٠٠ فكيف يلتحف جسدك بهذا الثوب السحرى ٠٠ كيف لم تكن تدرى انك كنت شخلويا من النار قذفته عين الشيطان فى لحظة غضب جنونية ، وكان لابد أن ينطفىء فى هذا الجوف الذى يحتويك ؟! » ٠٠

أرخى الفتى ذراعيه على صفحة الماء ٠ اهتز رأسه فوقها بنشوة عارمة ٠ صور متلاحقة تدهمه دونما هوادة أو رحمة :

فى ليلة سوداء مثل الكحل دخلت أمه القاعة • لطمت خدها ••
وصرخت صرخة مكتومة جاءت بملاءة بيضاء غطت بها ذلك الجسد
الممدد فى الفراش • الفجر يطلع لكنه فجر كئيب • لم يكن ليله قد
انسحب ، فقط ، انكمش ، وتكثف ، وانصب فى كتل متراصة
تحتشد بها القاعة ، لها عديد من الأيدى والرؤوس ، تنتفض وتصدر
أصواتا مشروخة من فرط الارتياع • النعش يتهادى وسط موكب حافل
بكتل أخرى تتحرك ولكنها لا تصدر أصواتا • يمر النعش بالزاوية •
يزوده الفقيه بنصيبه من الصلوات •• يغبطه على متاع الآخرة ، الذى
هو ذاهب الى لقياه • انفتح باب القبر عن فجوة ظلماء فح الليل من
جوفها عفن الرائحة ، لابد انه كان مسجونا بداخلها قبل نشأة
الدنيا •• ليل معتق ، هب من جوف المقبرة فزعا ثم عشش فى جوف
الدار وصنع له مخدعا جميلا مستقرا •• أخذت له الأم زخرفها
وازينت وفى حضنه نامت !!

يا ليل يا شيطان • أمه خلعت لك السواد •• وبرق عريها فى
جوفك الضرير • تقلبت الدنيا فى حضنك وتلوت ، وتمطت وتناءبت •
وعصرها ساعدك القوى بقسوة فتأوهت • تهدل على ذراعيك
شعرها فكأنكما معا شجرة صفصاف رمتها الطبيعة على هامش
الشطئان ! • تسلل صوت الأم من القاعة الجوانية •• كصوت مواء
القط ، ممطوط مرتعش ، مختلط بضحكات • نهض الصبى من نومه
فى الدهاليز • دفع باب القاعة انشق الصمت عن شهقة فزعة ،
وطنين شيء ثقيل يهوى على الأرض • توقف الوجود هنيهة • يد من
حديد تطبق على عنق الصبى • تشده خارج القاعة • تعيده الى فراشه
تلصقه بالأرض فى قوة جبارة • خنقت على شفتى الصبى صرخة
ملتاعة • من شدة الخوف نام كأنه مات •

فى الصبح جمع صبية الحارة • وراح يحكى حلمه المشؤوم •
هكذا سماه ، كيما يصدق الأولاد •• ألم ير الشيطان ؟ • لكنه لم

يكمل . هبطت أمه كالقدر . جذبته من يده هوت عليه كانها تقتله .
وجاء الليل بالشيطان ، وفى عينيه نار موقدة . سددها اليه فى
حدة وأمره أن يقترب فتباعد الصبى : دب الفزع فى قلبه . اطلق
مع الريح ساقيه . فزلزلت الأرض خلفه . نظر وراءه ، فاذا الشيطان
يلاحقه . علت صرخاته . ظل يجرى .. ويجرى .. وتزلزل الارض
خلفه .. والفضاء ممتد امامه كسجن عريض . لابد أن يتوارى
أين ؟ .. خيال شجرة الجميز يلمع فى صفحة البئر .. الأرض
تهدر خلفه . يد الشيطان كادت تلمسه . صرخ . صرخ . صرخ .
انشق ماء البئر وابتلعه . اصطدم في جوفه باشياء بارزة . نشبث
بها . ظل برهة معلقا بين الماء والهواء . أحس فيها بدبيب خطى
الشيطان تتراجع وتبتعد ثم تختفى . خرج من أعماق البئر .
ووقف وحده طويلا . أحس برهبة المكان من حوله . طن فى سمعه
دبيب الخطى من جديد . خيل اليه أن خطى الشيطان تبحث عنه..
وحتما ستصل اليه . لابد أن يهرب .. ولكن أين ؟ . هل من
ملاذ ؟ .. والفضاء سجن فسيح ؟! نزل البئر ثانية . حرك ذراعيه
وقدميه فى همجية . اكتشف انه يستطيع البقاء على سطح الماء
فترة طويلة . فى الصباح ظل واقفا طول النهار فى الشمس
يرتجف . رآه الناس يخرج من البئر . بانت على وجوههم دهشة .
قالوا : اذن لم يمت بركات .. كما قد أعلن الشيطان ..

.. من يومها والبئر حضن حنون يحضنك . ومن يوم الى
يوم تغوص فى أعماقه .. البئر نبع زلال لا قرار له .

***

هجر الفتى داره من ذلك اليوم البعيد . أصبحت أرض
الحوارى مرقده . وخضرة الحقول مرتعه . وفى أعماق البئر يفرغ

همومه . ومن حين الى حين يعود الى البلد . وفى عينيه نظرة بلهاء .. وفوق ثغره بسمة غامضة . وقيل « لقد رافق الجنية » .

ــ « ... الجنية ؟! الجنية يا من يحكون ويحيكون قصة حبك لى . آه يا حبيبتى الجنية .. آه لو التقى بك .. أو تلتقين بى ؟ آ .. ه .. جنية ؟!

المقطع الثانى :

كانت « ام الخير » تملأ البلاص من ذلك النبع الزلال . أرخت الحبل وتركت البلاص يغوص فى الماء .. ثم انحنت ترفعها .. فانفك قفل « كردانهـا » .. وابتلعته أعماق البئر . صرخت « أم الخير » .. لطمت خديهـا .. ذهبت الى الدار من فورها صريخها يلف الحوارى ويتسرب الى القيعان من خلال أعواد الجريد المطبقة على الطاقات والنوافذ والأسطح . وانتفض الدجاج فى الحظائر وعوت كلاب فوق الأسطح ونهق حمار وصرخ طفل على حجر أمه وانقلب « بكرج » الشاى على يد أحد الآباء فانسلخت . لفظت الدور نساءها ورجالها وبصقتهم على العتبات يشدهم فضول غريزى . « أم الخير » تتدحرج . تسابق الجميع فى سلب لب الحكاية بمختلف الأساليب . فمنهم من خطف منها جملة ومنهم من سارت خلفها تجمع ما يتساقط من فمها من كلمات . تكاثرت الكلمات وتناثرت وتحولت الى رجال ونساء وأطفال وربما دواب ، يسيرون خلفها وفى أعماقهم حماس غامض الى انتظار شىء مجهول . توقفت بهم عند منزلها . ثم ، كأنهم جميعا كانوا يدخرون ما فى حوزتهم من كلام لحين وصولهم الى هذا المكان .. فما لبث أن ارتفعت فى الجو أصوات متداخلة متشابكة تتناحر ولا تقول شيئا مفهوما على الاطلاق .

وحينما هبطت « أم الخير » صحن دارها وهبط رأسها على

صدر أمها .. آبت الأصوات الى شيء يشبه التحفز أو الانتظار..
انتظار شيء ما . شيء يبدد صمت الليالى ويحرك ماء البئر الآسن
فى حياتهم . ثمة ولع بمأساة ما يرقد فى كل هذه الأعماق ولع
غريب ، بحدث جل ، أمضى الجميع أعمارهم فى انتظاره .

وفى ليلتنا هذه انسحبت الشجاعة من كل الأوصال ، حتى
من قلوب العديد من شبان البلد العايقين المتعشمين فى بسمة رضاء
من أم الخير . فالبئر ربما كان بئرا . وأضعف مخلوق من هؤلاء
خاض غمار المصارف والترع وآبار السواقى آلاف المرات . أما بئر
بركات ، بئر جنيته الحبيبة .. فأين هو الشجاع الذى يضحى بعمره
ويقترب منه لقاء بسمة من أم الخير ؟

الكل كان يتمنى قدوم يوم كهذا اليوم . وبالتحديد لحظة
كهذه . لحظة كانت أمنية تعشش فى أذهان البلد خاصة شبانها ،
لكى تتاح لهم فرصة الاستمتاع بالكشف عن شجاعتهم
واستبسالهم وطاقاتهم الثرية المختزنة فى بطن الخواء اليومى
الرتيب . فما بالك وأم الخير هى صاحبة الموقف . يا طالما جاءت
سيرتها فى خاطر أحد الشبان فتمنى أن تجمعه الظروف بها فى
حادث يثبت لها انه ولد ولا كل الولدان . ولكن ها هى أم الخير
فى كارثة ، فقدت كردانها الثمين الذى لف صيته العب كله فصار
أغنية على نهديها . وها هم جميعا يرونها تتمزق : جزء عظيم من
جمالها ضاع ..

مر الفتى بركات . زعقوا جميعا قائلين : تعال يابركات..
فجاءهم بركات يجرى وفى قفزاته حب كبير :

ـ هيا يا بركات ..

ـ احضر لنا الكردان ..

ـ خذ ما تشاء من النقود ..

ـ بركات لا يبغى نقودا .. بركات جدع ..

ـ لا تكثروا الكلمات..هو سوف يفعل دون ان نرجوه ..

لم يدر الفتى شيئا .. لا ولم يفهم عن الكلمات .. سرب الحنان رفرف قادما يتهادى من عينى أم الخير .. ولكن من خلف نظرة انكسار مبللة بالدموع .. « ما أمتع الجمال والأحزان تغسله » .. أم الخير رفيقة الصبا .. كم لعبا سويا لعبة العريس والعروسة .. كم ذابت فى حضنه طفلة طرية شسهية موردة الخدود متألقة الملامح مسمسمة .. كم بكى لانها غضبت منه لم تستجب لندائه ساعة اللعب .. مساك الله بالخير يا أم الخير ماذا على بركات ان يفعله.هل لو فعلت يا أم الخير تسمحين لى بالجلوس فوق كرسى خدك فانجعص ويحدونى الشوق فأستحم من بحرى عينيك الصافيين ؟ أطلبى يا أم الخير . أطلبى .

سرب الحنان يخفت .. وتتكسر أجنحته فتهوى به الى الأرض . ضحكات بلهاء تتساقط من شفتى بركات ، فتطن فى الأرض مكتومة الصدى ..

ـ هنئك يا بركات .

ـ هيا يا بركات ..

المقطع الثالث :

تزحزح الجمع دافعا بركات نحو البئر . موكب ضم أهل البلد .. بالطبول .. والشخاليل .. والزغاريد . حملوه فوق رقابهم . وهتافهم زلزل الأعماق من نفس الفتى :

ـ « بركات يا بركات . يا ابن البلد يا أمير . اغطس وقب

يهات .. كردان أم الخير .. واستحضر البركات ولأهل فوق الأرض .. استلهم الدعوات .. يا ابن البلد يا همام » .

طرح الفتى عينيه فى زهو سعيد . لابد أن الأرض ترقص له . لابد أن هذا يوم عرسه . نعم لابد . انه بالفعل هكذا . لماذا لا ؟! ابشر يا ولد .. ان هذا العرس عرسك . تبختر يا عريس فهذى ليلتك .. لا شك انهم يزفونك الى عروسك الحبيبة .. الى .. الجنية .. ويقولون كردانا ؟ وأم الخير ؟ .. لا .. انهم قد أخطأوا .. لا لم يخطئوا .. أنا الذى لم أسمع جيدا .. ليس اسمها أم الخير .. اسمها الجنية .. ولسوف تعثر على الكردان يا بركات .. وفرحا سعيدا ترشقه فى صدر عروسك .. الجنية .. أليس هكذا يا أهل البلد ؟! ..

قالوا :

ـ ماذا يافتى الفتيان ؟

قال :

ـ ألستم الآن تزفوننى .. الى الجنية ؟!

هتفوا جميعا وفى أعماقهم صدق حقيقى :

ـ نعم يا فتانا .. وان هذا اليوم أسعد يوم ..

قال بينما يهدهد نفسه فوق الرقاب :

ـ وأليس ذلك الكردان كردانها ؟ .

قالوا وقد غاب عن أذهانهم موضوع أم الخير :

ـ فليكن .. وكل ما تبغيه .. تعطيه للجنية ..

زعق الفتى زعقة هزت فروع الشجر . نادى وقال :

- يا جنيتى ٠٠ قد جاءك العريس يا جنية ٠٠ جاء تزفه كل البلد ، فرحانة بزفافنا ٠ فلترقصى ولتسعدى ٠٠ فها أنا قادم اليك يا جنية ٠

ودب فى الأوصال لهب ساخن ٠ ودوى فى الفضـــاء قرع الطبول ٠ ولحق بالموكب موكب آخر ٠ تفتقت الأرض عن أفواج لا حصر لها من البشر ٠٠ تحمـــل المشاعل ، والمزامير والدفوف والشخاليل ، والبيارق ٠٠ وتهز أركان الفضاء ٠ تطايرت فى الجو آلاف الزغاريد ، كالعصافير الطليقـــة ، ترفرف وتحط على رأس الفتى بركات ٠٠

وعند البئر أنزلوه ٠٠ و ٠٠ تركوه ٠٠ يتقدم وحده ٠٠ ثم تراجعوا ٠٠ تماما ، كما يتركون العريس يدخل مخدع عروسه انخرس كل شىء ٠٠ كان الوجود شملته لحظة صمت خرافية ٠٠ لم يقطعه سوى انشقاق الماء ٠٠ ثم انطباقه ٠٠ ثم مالبث طنينه أن ذاب فى الأفق البعيد ٠٠ كما ذاب الفتى بركات فى عمق بعيد ٠ الأنفاس كأنها تعلقت بصـــفحة الماء ٠ الآذان أرهفت ٠ الأحاسيس تيقظت ٠ الكل لاهث الأنفاس فى انتظار صرخة كصرخة العروس ، لحظة تخدش بكارتها ٠ لكن لحظة طويلة مرت ، كأنها دهر طويل ثقيـــل غير أن اللحظة طالت وطالت ٠٠ واستحال الواقفـون الى تماثيل ٠٠ كأنهم نتوءات بارزة على سطح الأرض ، كل ما فيهـا عيون تبرق وترسل الى صفحة الماء نظرات شاحبـــة ٠ على أنهم ما لبثـوا أن استبانوا خلال الماء كتلة غامقة تطفـو على سطحها شيئا فشيئا ٠٠ ما لبثت أن تجسمت ٠٠ أنها ٠٠ بركات ٠٠ كتلة لحم ذات رأس متهدل ٠٠ تقيأت على صفحة الماء دما قانيـــا مشوبا بزرقة ٠٠ ثم عادت تهبط من جـــديد ، الى أن غابت فى الأعماق البعيدة ٠

وبعد جهد جهيد . استطاعت النتوءات البارزة على سطح الأرض أن تتحرك ، بما يسمح لها ـ بصعوبة شديدة ـ أن تلوى الشفاه والأعناق ، وأن تلتقى النظرات بالنظرات ، وربما يكون قد مر دهر كبير ، استطاعوا بعده أن يقولوا بأسف وأسى :

ـ واحسرتاه .. لقد أفشى السر .. فخطفت روحه الجنية » !! ..

(أكتوبر ١٩٦٤)

عندما يورق الموت

انقضى الليل • انسحبت ظلمته من بطن الكون •• وحطت فى صحن الدار • والنسوة أشباح • بقع من طين أسود محفوف بالزرقة • كلمات تتساقط فى لوعة •• تتناثر تتكاثر تتلوى فى ذعر •• وتصوت فى سمع الصبح :

ـ يا راحلة عن دارنا لم ترحلين ؟ أفتتركينا هكذا فى محنة ؟ الدار بعدك خاوية •• والشمس خنقت نفسها فى جوفنا •• يا راحلة •• لم ترحلين ؟! عودى الى الدار الحزينة وابعثى فيها الأمل •• فلربما تخضر منك قلوبنا •

•• اليوم ترحل جدتى •• وبالأمس رحلت أمى المسكينة : لم ترحلين يا أم عنى هكذا •• ؟! لم لم تحمليني فى ضلوعك يومها •• ؛ لم تتركينى بينهم •• ؟ كم كنت أهوى أن أكون بجانبك • كم كنت أعشق صدرك الملآن •• كم كنت أعشقه • رضعت من حلماته رحيق الحب والدنيا • دفنت فى أعماقه روحى ، وأفراحى ، وهمى ، وأحلامى وأيامى وندمى • يا لهذا الصدر من جبلين • من هرمين يحتضنان جدولا رفرافا بنور زاهر

عاطر يا طالما دسست أنفي وشفتي بين دفتي ذلك الجدول .. فتهت عن الوجود عديدا من الدهور .. لم أكن أشعر خلالها الا بهدهدات كفك العريضة الحنونة وهي تطبطب على في سرعة محمومة بسخونة الحب .. وتضغطين وكأن أحشاءك لن تستريح الا بعد أن تحتويني بداخلها من جديد . ولعـــلك لم تكوني في تلك اللحظة يا أمي الحبيبة لتدركي أنني لم أكن لأشعر بأني خارج الأحشاء منك . ؟ لعلك لم يدر بخلدك أنني ما كنت لأحس بضجيج الحياة . الا بعد أن انسلخ من صدرك لفترة ما لسبب من الأســـباب . وما كان أكثرها وأشقاها من أسباب . فلطالما نزعتني عن صدرك بعنف جبار وقسوة ووحشة وكأني بها كانت تغرر بي . اذ تنزعني عن صدرك شيئا فشيئا . لتحول بيني وبينه في النهاية الى الأبد وفي ذات الوقت تستقيني مرارة اللوعة . ولهيب الحسرة والشـــوق والحرمان على مهل . وها هي الحسرة تستقر الآن في قاع بطني آه ياللهب الفظيع يرتفع أواره الآن في أعماقي .. آه .. ه .. يا أمي .. آ .. ه .. يا أمي .

أنا رحت بلاد الغربة يا أمي كيما أصنع من نفسي شيئا .. كيما أشعل مصباحا يهديني لمصيري .. كيما أرتاح وأرجع للصدر المفتوح .. كيما أتسلق قمته المرتفعة ــ وفي قدمي سلاسل من أوجاع وموانع ترسخ بي وترشقني ، لا تزرعني بل ترشقني في مكاني وفي القدمين العاجزتين بريق حلو يتصـاعد دوما كالنظرة تهفو تتطلع لشموخ الأبدية ، ترنو لصعود مزدهر بالخضرة ، تحملني النظرة وتطير وتحط على صدرك يا أمي تنصب وتقيم على صدرك عرسي تجلسني في زهو فوق الجبلين .. مرفوع الهامة والعينين أشقى للأرض رحيقك يا أمي كيما نقطف زهرتها .

رحت بلاد الغربة يا أمي نهشتني الغربان ، اقتطفت روحي ، وحماسي .. قتلتني فرجعت اليك ولم أصنع من نفسي شيئا .

عدت الى صدرك مشتاقا ملهوفا كغريق يهفو لشراع أبيض فلعلى القى فوق الجبلين حياتى . لكنى يا حسرة .. لم أجد الصدر المفتوح اين مكاني فوقه ؟ هل ضاق الصدر بأحزانى ؟ فعلا .. قد ضاق الصدر بأحزاني امتلأ بأحزانك يا أمى . قد مات أبى من فرط الحب .. ضحك فمات هل راح الجنة ؟ .

كنت تقولين وفي عينيك لهيب : ذهب الى الجنة حيث تذكره الله تعالى والآن من هذا القادم نحو الدار ؟ من هذا الزائر يتفضل ويؤانسنا ليل نهار ؟ من هذا الغازى قلبك يا أمى ؟ من ؟ من هذا الدائب فى ترديد الكلمات الطنانة ؟ من هذا القائل أن الشمس ستشرق خضراء وتظلل سعف النخيل ؟ من هذا الواثب فى الأحلام؟ الواعد بالأحلام .. ! الشارب من غشيات الدنيا أحقر ما فى الكأس. أنى أكرهه ، أمقته ، أمقت ظله ، أمقت صوته .. أمقت كل الدنيا اذ تهتف باسمه .

قلت لجدتى المسكينة :

ـ من هذا الضيف .. ؟

ـ قالت جدتى الطيبة :

ـ هو صاحب بيت . قد أصبح صاحب بيت منذ الآن !

قلت : ـ

ـ وكيف ؟

قالت : والدمع يبلل نبرات الصوت :

ـ الدار حزينة يا طفلى .. تحتاج لفرع يورق ويظلل هامتيا ويظللنا .. ويدوس الأرض بقدم خضراء ..

قلت : ـ

ـ الدار مليئة بالجدعان فما بالك يا جدتى الطيبة المسكينة ، تأتينا برجل لا يعرفنا ولا نعرفه ٠٠ ياللعار ٠٠ تأتين الأمى بالعاشق الشارب أحقر شهوات الانسان ؟

انخرس الصوت على شفتيها فانخرس على شفتى ٠ قالت بعد هنيهة ٠٠ :

ـ يا ابنى لا تكثر أسئلتك ٠٠

قلت : ـ

ـ أجيبينى ٠٠ لن أهدأ حتى تعطينى جوابا ٠

قالت :

ـ يابنى لست المسئولة ٠٠ اسأل أمك ٠

وسألتك يا أمى ٠٠ فالتمعت فى عينيك مهانة ٠٠ وغضضت البصر ولم تعطيلى أى جواب ما هذا السر الغامض ؟ ما هـــذا يا أمى ؟ ومن هذا ؟ ٠

انطلقت عبراتك يا أمى ٠ وأخذتينى فى حضنك ٠٠ وحكاية هذا الغول تلف الليل على شفتيك :

ـ قد خطفك يا أمى ٠٠ جذبك من شعرك ٠٠ ليريك القصر المسحور ، والجنة ذات الأعمدة الخضراء وذات فروع سكرى بكئوس الطمى ونفوس تسطع داخلها شمس ذهبية ـ ست الحسن هناك مازالت تنتظر ـ حسن ـ ليجىء يخلصها من فك الغول ـ كانت أمنيتى أن أذهب لأخلصها ٠ لكن يا أمى أدركت بأنى لازلت صغيرا ، فالغول القابع فى حضنك غول جبار ٠ آ٠٠ه يا أمى٠٠من يشرب من لبنك ويخلصك ٠ آ ٠٠ ه لو انى وضعتك ما يكفينى ٠ لو انى

ظللت أشم عبيرك من صغرى .. لكن يا حسرة .. لم نرضع غير الحرمان .

يا غول يا ساجن ست الحسن ، رحماك بست الحسن فهـذا غول آخر يسجن أمى .. أمى ماتت في يديه..ماتت..ودفناها . ورجعنا نتجسس فى جوف الدار ونبحث عن شىء نحييه . ليس هناك سوى جدتنا .. والغول يعود ويتمدد فى جوف الدار .. يلقى باللوم علينا :

ـ أنتم يا أبناء الدار أهملتم فى شأن الأم . أنتم يا أبناء الأب المارق أغفلتم رى الأرض وأضعتم ريع الأرض .. فدعوها .. ودعونى أتصرف فيها حتى أحييها .. !

بالله عليك ها نحن تركناك فماذا فعلت ؟ هل نتكلم ؟ من جعل الأرض حريقاً ؟ من سحب الخضرة من سعف النخيل ؟ من أغلق باب الدار على الغربان .. ؟ هذى غربانك مازالت تنعق فى جوف الدار . ها هى بوماتك تمتص هواء الدنيا .. تحرسها شياطينك ، تحميها وتنميها . من ذاك الفاعل هذا ؟ من ؟ هل تتكلم ؟! كان الأجدر أن تقتل نفسك ، أو تتوارى ـ مادمت حريصا أن تحيا فى مجتمع الغربان ، مادمت توارى سوآتك الواضحة وضوح الخجل على خد العذراء ست الحسن . هل تتكلم ؟ وتقول بانا أهملنا .. ؟ أهملنا ماذا ؟! أهملناك ؟ أم أهملنا الحق الضائع بين يديك .. أم أهملنا الشمس المنطفئة ، المحتجبة خلف ذراعيك ؟ أم أهملنا أمى وتركناها تتلظى تحت لواءك ، تتلوى . وتزم الشفتين لتكظم غيظ سـنين الحسرة فى نبرك . كانت يا حسرة تخشى كلمات الناس .. وتتحاشى أى فضـيحة .. كانت فى قفصـك صارخة الصمت .. طرحتها السوداء تندب حظ هواها الأعمى . كانت فاقدة الحول .. لا تدرى ماذا تفعل والغربان تبدد ثمر النخيل وتبددنا .

هل تقصد ـ يا غولا هبط على مأمنا وانقض على أمى أننا أهملنا فى هذا كله ؟ أم ماذا تقصد ‥ ؟! لا تلق الذنب علينا ‥ لا تطمس فى الأذهان خطيئتك الكبرى : ماتت أمى ـ احترقت فى صهد الأرض العطشانة . أكلتها الغربان . نهشت جثتها الغربان . هل تنكر هذا ؟ هل تنكره ؟ أم أنك لا تذكر هذه الأشياء ؟ .

أفلا تذكرنى طفلا مذعورا يتخبط فى صرخات الليل وتتقاذفه عديد من نسوة والجدة تمسك جلبابى وتحيط بألبابى . وتحاول جاهدة أن تحجب عنى الرؤية وأنا أنثال دموعا حارقة . صامتة ‥ لكن كهدير الماء يصب على المأتم . ويولد فى الجو شرارا يجتاح ضجيج الحزن الكاذب . ويغطى صرخات النسوة . ؟ أنسيت ‥ ساعة هبطت كل النسوة وركعن أمامك يرجونك . دعه يراها . أنسيت الصورة ؟ صورتك الملعونة لحظتها . حين ضربت الأرض بقـــدم مخبولة . وأمرت بوضعى فى القاعة والاغلاق على ‥ حتى ندفنها ؟!

ودفنتم اياها رغما عنى‥ذهبت أمى . تركتنى أجتر أساى وحكاية ست الحسن والغول السجان . قولى يا جدتى الطيبة :

ماذا فعلت ست الحسن ؟ تتثاءب جدتنا . وتملس بالكلمات على عينى :

ـ ست الحسن هناك مازالت فى القصر المســـحور . القبر المهجور ‥ تنتظر الشاطر ليخلصها من فك الغول . قالت هـــذا بالأمس . واليوم تذكرها الله ‥ فماتت . قالته وماتت ‥ آ ‥ ه . كان حديثك يا جدتنى المسكينة ‥ سحرا يطربنى فى النوم ويجعلنى أتقابل مع ست الحسن وبنت السلطان ‥ أطرح بينهما أملى مرهونا بفؤادى .

ـ من تنجح فى توصيلى للجلة ‥ تأخذ قلبى وحياتى ، ونعيش

سويا فى رغد ، اذ أنى سأقابل أمى فى الجنة · وسأجد هنــاك
لى الجبلين على الهرمين مكانا يأوينا ·· يا ست الحسن ·· ويعطينا
شا نبنيه ·

شدتنى بنت السلطان ·· جرتنى من ثوبى الريفى الواسع ·
أرتنى قصورا وعبيدا ، ورجالا ليسوا كرجال البلدة ، ليسوا من
طين بل من حلوى وأرتنى أرضا ليست من أرض البلدة ليست من
خضرة بل من حجر ورخام وأرتنى زحمة لم أعرف فيهـــا مخلوقا
يا كان ·· وأرتنى وأرتنى حتى صرخت من الغربة وطلبت الجنة ··
وطلبت السير اليها ممتطيا قدمى ـ ان عز على الركب · وعرضت
حياتى ثمنا لهواها لو ألقاها ·

ضحكت بنت السلطان ، وقالت ـ يا مخبول ، يا متأخر ،
تلك هى الجنة ·· فامرح فيها كيف تشاء · اشرب ، كل ، البس ،
أرقص ، غن ، مر ، انه ، افعل ما يحلو لك ، فالدنيا ملـــكك ·
فاما وسعتك الدنيا ، فانظر فى عينى ، لتطل على دنيا أخرى ··
أدخلها وارفع فيها واستسلم ، ولسوف أغطيك بجفنى · أو أدخل
فى حضنى ، وتمدد ، وتمرغ ، واقس على ، اسحقنى لو شئت ،
فتتنى ، اجعل ثقلك يهبط بى فى جوف الأرض ماذا تبغى ؟ قل ،
فى النوتكون البغية بين يديك · لن أفعل أكثر من ضغطة أو حكة
فص ، تنقلب الدنيا لحظتها وتجىء وتركع وتقبل قدميك · ماذا
تبقى ؟ ماذا يا فلاح الشؤم ، يا ناشفا يا عملاقا حافى القـدمين ،
يا راضع لبن الأرض الأم ، وساقيها دم ذراعيك ·· قل لى ، أتكون
أبوك قد خاوت رحم الأرض ·· فلا يستسلم أحدهما الا للآخر ؟ ·

جمعت حياتى ووفائى للعهد الغالى ونطقت أخيرا ، قلت :

ـ يا بنت السلطان ، يا أحلى ما أنتجته الجان ، اصنعى معروفا
ودعينى ·· مادام البر الثانى مازال بعيدا ، مادام هناك هناك على

مرمى الأبعاد · أعرف انى لن أرجع للبيت فلا توجد أمى فيه ·· لكننى لابد وأن أتحرك فى جهة ما ، وما دمت تحركت فلابد وأن ألقاها ·· ألقى أمى ، والجنة ، فالجنة مثواها ـ قال الشيخ يصلى عليها ، والجنة مأواها ـ قالت جدتى مؤكدة لى ·

انشرخ الجو ، فى وجهى طق شرار عينا بنت السلطان حمم · أكأن المردة قد وجدت فى التو وأشاعت فى الجو لهيبا · ياللأهوال المحدقة بأهل الأرض وبى · لفتنى دوامة ، رفعتنى فى الجو ودارت بى وانخرطت فى الدوران ·· قذفتنى فوق الأرض حطاما ·

فتحول ظهر الأرض ، وانقلب ذراعا ممدودة تتلقف رأسى · واذا بى مسنود الرأس ، يمتص وجودى دفء حلو يمزجنى بطراوة صدر لم أعهدها الا فى حضنك يا أمى · انفتحت عيناى ، ومن بينهما طار بريق حلو أحمر ، كبريق الصهد المتصاعد من جوف الارض العطشانة · انطفأ الصهد بشعاع هبط على بصرى كشعاع الماء المتدفق من أعلى الجدول · كانت نظراتك يا ست الحسن ·· نظرات غسلتنى من كل هموم الدنيا · فشربت الروح ·· آه ·· يا ست الحسن ·· ما هذا الخد الشارب من طمى النيل ؟ ما هذى الخضرة فى عينيك ·· رسينى يا ست الحسن ·· رسينى على خدك ·· ومرينى أن أطوى شراعى ·· وخذينى فى حضنك ·· ضمينى أليك ·· ضمى ·· ضمى يا ست الحسن ·· الجنة قدامى يا ست الحسن ·· الجنة فى قلبك ·· أعطينى المفتاح ·· لا ·· قلبك يا ست الحسن لا يألف مفتاحا ما ·· وسأفتحه ·· أنفاسى ستذيب الأقفال ·· أولا ·· قلبك يا ست الحسن غصن أخضر طاب على أمه ·· وسأقطف منه فروعا أزرعها فى كل قلوب الأرض ·

آه ؟ ماذا أسمع ؟ يقترب زئير ماذا ؟ الدنيا تهتز ·· تتهاوى الأشياء على سطح الأرض وتردد أوراق الأشجار نحيبا وهتافا ·· تتهامس فى ذعر ·· الغول يمر ··

ـ ما بالك يا ست الحسن •• ما بالك واجفة القلب ؟ ارتعدت ست الحسن لطمت خديها قالت :

ـ يا ويلى •• أين أداريك •• أين ؟ لا مهرب منه •• لا يخفى فى الدنيا مكان عن عينيه قلت :

ـ دعينى يا ست الحسن ، فلسوف أخلصك •• الساعة سوف أخلصك • سطع الحب على شفتيها •• ربتت شفتاها على صدرى • قالت فى لوعة ـ اهرب يا طفلى • اهرب خيرا لك قلت ـ وقد بدأت ترجفنى رعدة : أنا ياست الحسن شجاع ، لا أخشى شيئا حتى المارد ••

بسم العطف على شفتيها ، فى حين أخذت تتوارى عن بصرى ، وتشير بكفيها وتقول :

ـ لا تستسلم لشجاعتك الحمقاء •• فى هذه الحالة يا طفل لا تعتبر شجاعا بل مجنونا • اهرب وانج بجلدك • فاهتزت بى الأرض ، وصرخت بفزع ومرارة :

ـ دلينى يا ست الحسن •• اهدينى لمكان الجنة • رجع صداها قال بحسرة :

ـ الجنة والغول ؟ هل هذا معقول ؟ فلتهدأ ياطفلى •• فأنا فى القبر المجهول أنتظر خلاصى • لكن فى كل الأحوال يا طفلى لا تحزن •• فخلاصى ـ أيا كان ـ سيكون ربيعا •• ويخضر سعف النخل • فقع زئير •• طقطق صوت كسر جنبات الكون • قالوا فى همس مذعور :

ـ الغول تثاءب • ناديت بأعلى صوتى :

ـ ياست الحسن •• لا أعرف كيف أعود ، ولا كيف أمر • قال الصوت يحذرنى :

ـ جرد نفسك من أسلحتك وامضى بدلا من أن تنزع منك وتطرد من دنيا الأحياء • وارم سلامك قبل كلامك •• وابعث لأمك ألف سلام •

★★★

ـ يا راحلة عن دارينا لم ترحلين ؟ يا أم أهل الدار يا أصل السبب •• يا من خدعت الأهل والأحباب بالنـــوم الطويل يا من نسيت قلوبهم وحنينهم وأنينهم • ابعد عنها يا غول •• فالولية قلبها مقتول • وابعد عنها يا قاتل •• فالولية نعشها مائل •

•• يا الهى •• لم يعد يوجد فى هذه الدار من يهتم بى • ليس فى هـذه الدار من يهتم بى •• فاهتم بى أنت وتذكرنى • تذكرنى فلم يعد فى الدار ســوى الغربان ، واليــوم عشش عى نوافذها • بوابة الدار واسعة ، لكنها يا ألف حسرة مدهونة بالصدأ ، ملطخة بالصديد ، ولا طاقة لمخلوق بشرى على فتحها ، انها لا تفتح الا لجنى ابن جنى • كل من فى الدار ميت ، وكل ما فى الدار ميت• واليوم وفى هذه اللحظة •• تتوقف روح الأشياء • جدعان العائلة يزفون الأرواح اليوم • جثة جدتى العجفاء يكفيها كفن ضيق •• لكن العائلة تكفنها بعريض الأثواب ، فالجثة ليست جثتها ، بل جثة أرواح الجدعان ، واليوم ستدفن فى القبر ، تحملها جثة جدتنا • جدتنا ستروح الجنة بالطبع لكن أرواح الجدعان ، ماذا تفعل ؟ انى لا أدرى هل يمكن أن تذهب أرواح الناس الى الجنة••دون الأجساد•

ما بقى سوى أجساد •• حتى أنظر •• انظر يا الهى •• ماذا يمكن أن تفعل هذه الأجساد ها هى متكورة جنب الحائط تنتظر صلاة العصر وتنتظر الأكفان • جدعان البيت حجر قطع من طين من طوب ، من طمى برك ، من زفت ، من قطران •• برؤوس مائلة فى ذلة ، كالاستسلام كحقارة كلب أجرب يتلقى الركل ويعوى ويجرر

سنافيه ، ليرتمى على كومة قش ، أو ينقض على جيفة نتنة ، ينسى فيها ألم الركل ..

الجامع أذن لصلاة العصر فانتفض الجميع وقام .. والتفوا حول النعش . وأنا أتسلل ما بين الأرجل : — لابد وأن أذهب لأشيع جثتها ، لأشيع جثة أمي في جثتها .

الواعظ ملس فوق النعش . وتغنى كلمات :

— كل الناس تذوق الموت . لكن .. ما كل الناس تذوق الجنة .

هيا يا جــدتنا .. امض لمصــيرك ومصــيرك مجهــول ..
في قلب مقابر قريتنا انتشر الجميع بطابور يبدأ من وسط القرية انكفأ البعض على مقبرة الأم . انتفضت روح فتى وقف على مقربة منها أنشــل الفأس ولم تهو فوق الأرض . بعد الضارت بالفأس قليلا . صرخ فتاتا .. صرخ صراخا شــل الموكب والمنتشرين .. وانكفأ على الأرض يعانق شجرة . جذع أخضر ذو حزمة أفرع نبتت من أرض المدفن .

قال البعض : — في هذه البقعة ترقد رأس الأم . وقال الكل : — يا للحكمة .. أرض رملية تنبت شجرة ؟ لكن فتانا يتمطى . يصبح فجأة كالمارد .. كهرقل .. يفرد صدرا يسع الكون ويسد طريق الطابور القادم بالموت . يبعث فيهم صوتا كهدير الرعد :

— فلتقبل يا موت . أنت حقيقى والباقى زيف . أنت حقيقة كل الحقائق . أنت خلاص وأنت أمل أنت فناء وأنت حياة . وأنت ذبول وأنت ازهار . اسمعوا .. ياكل خلق الله يا أهل البلد . لا تقربوا هذا المكان . لن تقربوه .. ألا فلتسمعى يا من هناك فى قبرك المهجور قصرك المسحور .. هذا خلاصك .. ها هو الموت يورق فى قريتى .. هاهى أمى تطرح شجرة وتفتح ثقبا على جنتى . . يا أهل

بلدتى ، يا كبار ويا صغار ، يا نساء ويا رجال ·· يا أجنة فى بطون الأمهــات ، يا بذور الزرع فى أيدى الصــبايا ·· من ها هنا يبدأ التاريخ رحلته الجديدة ويبدأ الانسان فى صنع الحياة ·· فلتدفنوا جــــدتى فى مكان ما ·· لا ·· بل ذوبوها فى عروق الأرض ·· ودعوها تزدهر ·· ووالوها بالرعاية كل يوم ، لكى تشربوا روح خلاصكم ·· أما أنا فانى سأبقى هنا ·· فهذا خلاصى ·· فان ذات يوم مررتم هنا ، ولم تجدونى فى مكمنى ·· فقولوا بأنى ذهبت هناك ·· الى جنتى ، وانى هناك ·· متربع على صدر أمى الحبيبة ·

(١٩٦٤)

أغنية للقمر الغائب

•• وانزاحت عائشة ، وتمطت ، رفعت قامتها ، نفضت عن هذا الرأس المكدود شريحة ليل ، ورمتها • و والليلة يا صبايا •• الليلة •• هيه •• الله كبير يا صبايا ، وغني ، وأمير ، ويحب الناس ويكرمهم ، وخصوصا من هم فقراء ، ما أحلى حظ الفقراء ما أحلى آخرة المحتاج •• سـيلاقى فى الجنة أشياء لم يرها فى حياته ، وسيأكل يلبس يغسل يتطهر من كل الأوساخ ، وينام ، و •• و •• العانس فى هذه الدنيا الخربة يا صبايا • فى الجنة تتلاقى بعريس عملاق ، وملاك ، سيحضنها ، ويقبلها ، ويتوها فى صدر رحب مترام الاطراف ـ والدنيا •• لتغور بدنياها ودناياها ، لتغور فلا نطلبها •

وانبعث من القعدة صوت حالم ، صوت صبية ، جاءت ـ عبرت متسللة من سطح الجيران ، لتزور السطح العامر بالسمر ، قالت :

ـ يا عائشة • ما قولك فى عز هبط على عمك فجأة ، ليدندشه •• وليجعله رجلا من بين الأعيان •• يمتلك الأرض يؤجرها وينال

المال بغير حساب ، ويزوج بنينا وبنات من ابنائه ·· والفخر لمن يحظى بمصاهرته ؟ ·

انغلقت عائشة للحظة ، بعثت نظرتها شاردة فى الجو ، عانقت القمر الطالع ، النائم كحمامه ، فى أعلى نخيل متباعد : يا جريد النخل يا عالى ، ارفق بالقمر المتخفى فى سعفك ، احضـنه ولكن لا تخفيه ، أترى ، ها هو يتمرد فى صدرك ، ويحاول أن يفلت من بين ذراعيك ··

ـ عائشة ·· عائشة ·· مالك ساكتة ياأخت ؟

قالت عائشة :

ـ الويل لعمى ·· الويل الويل ·· قد كان حـريا يأخذنى ويعيشنى ضمن بناته ·· أو لست صبية ؟ أو ليس له صبيان ؟ ـ لم يصبح فى الدنيا أمان ·· عمى كثرت أراضيه · عمى لا يزرع شيئا ·· عمى لا يفعل شيئا الا أن يحصد مازرع الناس ·· قد كان فقيرا لا يجد القوت · قد كان أبى ·· وأبى ؟! ··

★ ★ ★

··فى وسـط الدار تمدد فوق حصـيرة · يتقلب ، يعطى للحائط ظهره ، ويعود فيعطيها وجهه ، ويلم ضلوعا خاوية توشك تنفجر · وبألم وحلاوة روح ، تتراقص أهداب مثقلة بسنين وسنين، تبلغ ستين ، ينفخ ، يتمطع ، يعطى للحائط ظهره ، ويمد ذراعا معروقا ليعانق آخر من أسفل ، يحضن بينهما رأسه ، فلعل النوم يجىء ، والنوم عنيد ، وبخيل ، وحقير لاينبغى أن ينجد من هم فى مثل الخطة ، لا بل هو يمعن فى الكيد فيسـوق عليهم أثقـالا : الدنيا حكم ، أمثال ، وتقول الأقوال : لا حاجة فى الدنيا تدعى « شطارة » ، بل بوجـد شىء يدعى الحظ ، ليتك تملك قيراطا منه ، أنفع من فدان

« شطارة » ٠٠ آه ٠٠ حكمتك يارب ، لك شأن فى شأن الخلق ، انى — لا سمح الله — لا أعتب ٠٠ فأنا عبدك مهما كان ، وعلى كل هذا خطر على ، هكذا جاء ، بخته ، ماذا سنقول ؟ لكن يا خسارة . لكأنك يا أخ « على » لست شقيقى . لكأنك لم ترضع من ثدى أنا راضع منه ، طول عمرك هذا » ، من يومك . ولد غدار وأنانى . حتى مع نفسك فى بعض الاحيان — تحضرنى الآن حكاية ، كانت قد عبرت أحلامى فى ليلة ، حيث تمددت جوارى ، فى النوم تغط وتنعمق ، واذا بى فى الحلم أراك . تمشى وتترتر ، وتقول كلاما لايفهم ، عن دنيا قائمة فى رأسك . فزجرتك ساعتها . وأردتك أن تمشى ساكت . فالجهد تبدد فى اليوم ، وتساقط عرقا . قطرات ذابت فى الطين — كان غريبا آلا يصرفك الطين — مع أنك فى الشغل تناولنى قطرات منه ، أتلقفها ، وأغلف منها نبت الجدران ، لا نميها، كيما يرتفع البنيان — وتجىء أخيرا تفلقنى بحديث تافه ، مؤداه غرامك فى فرس تركبه وتلف القرية تتمخطر ، وتباهى بشبابك اخواتك ،وتثير عقول الفتيات ؟ ٠٠ كنت حريا أن أزجرك ٠ لحظتها اجتزنا الحارة ، ومررنا على بيت « استيفا نوس » ، هو أعلى بيت فى القرية ، اذ يبلغ سبعة أدوار ، سكان القرية ترهبه ، فهو خراب من أعوام ، منذ اغتالت صاحبه الخمر ، وهوى فى عز شبابه ، أبقت أسرته ذكراه الحسنة ، ببقاء البيت بلا سكنى ، مع أن التفتيش العالى قد أحضر آخر ليحل مكانه وليرعى محصول الضيعة لكن فى بيت آخر ٠٠ ورأيتك فجأة يا شيطان تتسلق جدران البيت ، كالقطة تقفز بمهارة فقذفت وراءك ابصارى — وأنا ذاهل ، وهناك هناك على بعد المرأى ، لمحتك عيونى كالقطة ، كالرمز — التشاهد ٠٠ ما أفكه تلك اللحظة ، اذ رحت أحاول تقليدك ، فأخذت أشمر أطرافى ، وأمد يداى وقدماى وأسنانى ، أتشبث فى شىء يشدنى بحديد الشباك ، بنتوء بارز ، لكنى يا حسرة سقطت ، وأصابتنى الضحكات ، يبعثها الرائح والغادى سخرية منى . فى

حين كانت توخزنى الأهات ، لا بل كانت صرخات ، بدليل أنك ليلتها قمت بفزع وشرعت تصحينى ‥ من تلك الليلة يا ملعون آمنت بأنك لابد ستعلو ‥ كم كنت أنا ‥ كم كنت غبيا ، وحقيرا ، وحجودا ، ‥ ما اغبانى ، ما أعمانى ، سوأت معاملتى لك ، ورميت بقمازى فى وجهك ، صرحت بأنك ترهقنى ، اذ قل الشغل ولم يصبح مثل الأول ، وتجىء الايام بصبح يأخذك فلا ترجع أبدا ‥ فسالت الأفكار ، وبعثت الذهن وراءك ، لكنك عدت أخيرا ، وكأنك آت كى تشمت فى ‥ لا أكتم أنى متحسر ، وحزين ، متأسف ، لكنك لم تفعل شيئا ، لم تلق البال الى ، بل سرت وخلفك أثوابك وثراؤك ‥ فى رأس مازالت صورتك تؤرقنى : الوجه المملوء دما ، عكس زمان ، والثوب الكشمير الغالى ، وصديرى ، والساعة من ذهب خالص ، وحذاء لامع ، والأدهى من هذا وذاك طربوش عايق ‥ أصبحت أفنديا ؟ والله عال ‥ أتقول سلام ، وتمر ، لاتجلس حتى لو بضع دقائق ؟ ‥ هل تنتقم لماضيك ؟ ‥ أم انك مشغول عنى ؟ ‥ فعلا ‥ الدنيا شغلتك ، أعطتك ، رفعت من قدرك ، أنستك أخاك ، جعلتك تروح وتنسى أياما كانت تأتينا فى زى ليال مثل نساء عجفاوات سوداوات منكوشات الشعر ‥ بالطول بالعرض قطعناها ‥ هل هذا سهل النسيان ؟ ‥ طب اجلس برهه ‥ قل سلامات ‥ ازاى الصحة ‥ كيف الأحوال ‥ افعل شيئا ، أولست أخاك مربيك معلمك الأشياء ؟ ‥ هيه ‥ يا للأزمان ‥ ما عاد الأخ يحب أخاه ‥ دنيا أموال ومصالح ومنافع هل هذا يرضيك يارب ؟ ‥ أستغفرك وأتوب اليك ، اذ أنت ولاشك عظيم وخطير لاتفعل شيئا الا لمراد ‥ طيب ‥ الآن لدى سؤال : هل هذا الولد العاق يستأهل عزا يغرقه ويفيض عليه ، وأظل أنا مكدود الحال ؟ ‥ آه ‥ الآن تذكرت ‥ الواعظ قال : من كان فقيرا فى الدنيا عوضه الله بآخرته ‥ يعنى أنك تعطى لعلى دنيا كيما تنزع أخرته ‥ وعلى كل الأحوال فأنا أوحشتك على لقياك ، فارزق عائشة

يارب ، بعريس ابن حلال ، هى طبعا بنت مسكينة ، لم يتهاد لمحطتها أى قطار ٠

وتثاءب « عبد الفتاح » ، وتكور مرتكنا للحطائط ، ويداه تلفان سيجارة ، والنوم خرافة ٠٠

كانت « عائشة » تغنى أغنية للقمر المتخفى فى سعف النخل ٠٠

ـ انزلى يا بنت ٠٠ الفجر خلاص ٠٠

ـ نم يا أبى ٠٠ ماذا صحاك ؟ ٠٠

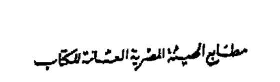
ـ اللغو بلا جدوى فوق الأسطح

لكن « اللغو » تصاعد ، واحتجب القمر وغاب ، وانثال عليه سحاب فوق سحاب ٠

(١٩٦٤)

الفهرس

- السنيورة ٣
- موال فى الزمان القـديم ٧٩
- أنشودة الكورس الحزين ٩٣
- عندما يورق الموت ١٠٩
- أغنية للقمر الغائب ١٢٣


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٠ قرشـــاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب